مراسم العتمة

رواية

إبراهيم الروسي

مراســـــم العتمـــــــة

المؤلف : إبراهيم الروسي

تصميم الغلاف : معمر مكي عمر

الطبعة الأولي : سبتمبر 2018

رقم الإيداع : 2018/13976

الترقيم الدولي : 978-977-769-225-0

جميع حقوق الطبع محفوظه

الناشر: أوراق للنشر والتوزيع

awraaq@live.com

القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم -

من صبري أبوعلم - عمارة

أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25

م : 01010490247

الإهداء:

إلي النبيلة، الشفيفة، النقية

مروة الطاهر

أحبك بحجم الوجع الذي يملأ ذاكرتي

إني أقدس الاستياء الذي يشعر به الإنسان تجاه نفسه، والذي يدفعه إلى الأفضل دوماً

«مكسيم غوركي»

عتمة سحيقة...

في فبراير هذا العام، سأكمل العقد الثالث من عمري، بالأحرى سأكمل ثلاثين عامًا من الخيبة، ومن شُرفة العام الجديد، تمد الخيبة رأسها وتطل مرة أخرى. لست سوى رجل مهدر ومهزوم تحاصره عتمة سحيقة. أتوسد خيبتي وأهشُ بعقلي الندم أينما ذهبتُ، من يراني يظن بأنني أعيش في برج عاجي، لكن حياتي أوهن من بيت العنكبوت. أظل حائرًا كمن حل عليه غضب السماء، تُصبح أقول يا ليتها تُمسي، تُمسي فأقول يا ليتها تُصبح. ما إن أضاجع حلمًا إلا وولدت طفلًا من الفشل، وكلما أشعلت شمعة للأمل يطفئها هوج رياح الحزن، أحاول التعالي على الواقع لكن سرعان ما تسقط أحلامي صريعة، أرى آمالي تتحقق أوهامًا ، وأراها نجمة متلألئة في الأفق البعيد، تقترب كثيرًا وما تكاد تلامس الواقع إلا وتنطفئ أضواؤها، وتصبح صخرة صماء من الحسرة. وكلما أخيط جرح للأسى، ينفتق جرحًا آخر من اليأس لا ينفع معه تخدير التفاؤل، تظل مزاجي دائمًا طريح فراش الحزن. أحاول مرارًا حلب بقرات الأمل السمان، قبل أن تأتي بقرات الخيبة العجاف وتبتلعها، لتدخل حياتي لحظات من الإحباط القاتل، أفقد حينها الرغبة في كل شيء حتى الحياة، كثيرًا ما فكرتُ في الانتحار واضعًا حدًا لحياتي البائسة، لكن ما إن أشرع فيه إلا وتراجعت لشيء لا أعلمه، انتابتني مرات

عدة رغبة في كتابة وصيتي الأخيرة وتوزيع كل ما أملك من الإحباط الذي جمعته طوال عمري الثلاثين، والذي إن وزعته بالتساوي لفكر الجميع بالانتحار مثلي.

لم أتوقع يومًا أن تكون نهايتي هكذا، أن تنتهي بي سنوات الدراسة الجامعية في هذه العتمة، أن يتحول الشغف والحماس إلى رماد من الخيبة، كنت أظن أن مستقبلي سيكون مبهجًا وزاهيًا، والحياة ستغمرني بالسعادة والهناء، وأحلامي ستتحقق ما إن أستلم شهادة البكالوريوس، مكتبًا أنيقًا وسيارة فخمة سوداء اللون، ومنزلًا فسيحًا يطل على حديقة جميلة. لم أتوقع أن الخيبة ستدنس أحلامي، وكل شيء سينهار في رمشة عين ويصبح الأمل جثة من الإحباط. بعد أن أكملت الدراسة الجامعية بتفوق، بحثت عن وظيفة تحقق لي أدنى أحلامي، لكن كالجمل الذي يلج سم الخياط، لم أفلح في إيجاد وظيفة، ولم يشفع لي تقدير الامتياز الذي تخرجت به، قدمتُ لعشرات الوظائف..أتصفح الصحف لا يهمني ما تحمل من الأخبار، بقدر ما يهمني أن ترصد عيني إعلانًا لوظيفة ما، أجلس ساعات بحثًا في المواقع التي تضج بأخبار الوظائف في الشبكة العنكبوتية، مع ذلك لم أفز بوظيفة. راودتني فكرة عبور البحر المتوسط والهجرة إلى أوروبا كما فعل كثيرون من الذين أعرفهم، لكن لم أفعل.. حاول الكثيرون إغرائي بالاغتراب في إحدى دول الخليج، لكنني رفضت، فلم تراودني يومًا ما رغبة الاغتراب، أن أكون فقيرًا في وطن قاتل للأحلام، خير لي من أن أكون غنيًا يعيش تحت رحمة كفيل يتجهمني.

مضت ثلاث سنوات منذ تخرجي، قررت العودة إلى قريتي بعد أن ألح والدي، غادرت الخرطوم مثقلًا بالحزن، بكيت كما لم أبكِ من قبل، لم أبكِ سوى حزن على فراق عبير، قضيت سنوات وأنا خائف من الابتعاد عنها، لم أفكر يومًا أن أصبح وأمسي دون أن أراها، بل في تلك السنوات الثلاث لا شيء أبقاني في الخرطوم سواها.. كم هو مؤلم أن تعد أحدًا بأن تحبه وتظل معه إلى النهاية ولكنك لا تستطيع.. وعدتها أن لن يفرقنا سوى الموت، لكن لا أدري بأن هنالك أشياء أقوى من الموت، ها قد جاء الفراق والموت لم يأتِ بعد. تركت عبير لكن موسيقاها حاضرة في كل ألحاني الحزينة، تظل تمسك بأكم قميص أفكاري، تجرجر ذاكرتي داعية إلى العودة خطوة إلى الوراء، أستنشق عطر الحنين، تفتح الذكريات الباب عنوة، تدخل وتبعثر لحظاتي ثم تغادر بعد أن تحدث ثقبًا وفوضى في قلبي المفجوع. طيفها يملأ أرفف خاطري، أحاول التملص منها، لكن هيهات، كلما أستأذنها مودعًا تعيدني من جديد إلى تخوم الذاكرة. تمنيت أن تكون ذاكرتي كذاكرة سمكة، أو على الأقل كذاكرة ذبابة، أنسى كل شيء مع غروب شمس جديد، أستيقظ بذاكرة جديدة خالية من أي لحظات مضت.

بعد عودتي، عملت مع والدي في متجره في سوق القرية، قبل أن أدخل في إجازة مفتوحة، بعد أن أمرني بالجلوس في البيت، خشية من فقدان زبائنه، فأنا لا أتصف بأي صفة من صفات التاجر الناجح، الذي يعمل جاهدًا على كسب رضا الزبائن، كنت أتعامل مع الناس بانفعال شديد خاصة النساء، ولا أفاصل في الأسعار، أقول سعرًا واحدًا وانتهى الأمر، وهذا ما لا ينفع

مع الزبائن، فمعظمهم يحبون المفاصلة في السعر، تقول لهم سعرًا ويعطونك نصفه، لا أبتسم في وجه الزبون ولا أسترسل معه في الحديث، أكتفي بجمل مقتضبة، غير أني دائمًا أكون شارد الذهن وأخطئ في الحساب، وهذا رجس في مقدسات التجارة.

أينما ذهبت أحمل في صدري وسام عجزي عن تحقيق آمال والدي، الذي تمنى أن أكون موظفًا كبيرًا في الخدمة المدنية، يفتخر بي أمام وجهاء القرية، وهذا أكثر ما يقض مضجعي، أشعر بتعاطفه معي، ولكن في الوقت ذاته أحس بالجرح العميق الذي ينزف بداخله، والذي سببته سكين خيبتي. الناس هنا يعتقدون بأن حصيلة الدراسة أن تثمر وظيفة وراتبًا شهريًا، ربما لهم الحق في ذلك، فكل إنسان يبحث عن نصف كوبه الفارغ. في تلك الفترة بدأت أهرب من كل شيء، اخترت المشي في العتمة، أدخن غيلون أفكاري، أنفث دخان أحلامي المحطمة، أراها وهي تودع صامتة وتتلاشى في فضاء الحزن. أشعر بأني طائر مكسور الجناح يتطلع إلى التحليق في السماء، ما إن يهم بالطيران إلا ويكتشف عجزه.

تجمدت معظم الأشياء في حياتي، أصبحت أرى الأشياء بطريقة وزاوية مختلفة، وأحس بها عكس ما يحس بها غيري، اللون الأبيض يخيفني والأسود يبعث في نفسي الطمأنينة، أفرح حينما يموت إنسان وأحزن حينما أرى طفلًا قادمًا توًا إلى الحياة. غدا كثير من الأشياء لا يهز قلبي، لست مباليًا لدرجة إذا رأيت شخصًا يهم بالانتحار سأساعده، قبل عدة شهور من عودتي، وحتى أكون دقيقًا، بعد تسعة شهور من عودتي، كنت أجلس في ذلك اليوم

في مكاني المعتاد عند شاطئ النهر، حينما جاء شاب في منتصف العشرين، أعرفه جيدًا، كان مخمورًا شاحب الوجه، حاول أن يتحدث معي ولكن لم ألتفت لهرطقاته، وبعد أن يئس من الحديث معي، خاطبني قائلًا بأنه قرر أن ينتحر، فقفز في النهر دون أن أوقفه، وطفت جثته في اليوم الثالث وقد فارق الحياة. بت فاقد الإحساس والمشاعر لكل ما يدور من حولي، لم أعد أحفل بالحياة وصخبها، أشعر بأن كل من حولي بلهاء لا يستحقون الشفقة مني، أقابل الناس بوجه شاحب وممل، لا أعبأ بأحد منهم، هم أيضًا لا يعبأون بي، البعض منهم يعتبرني مجرد شخص حاول التسلق على جبال الأحلام فوقع، وأصيب بارتجاج في العقل، وأصبح غير صالح للتعايش معه، معظمهم يعاملونني وفق هذا الفهم، البعض أقصوني من ذاكرتهم وغادرت سلم اهتماماتهم، أو لا أغدو عندهم سوى طيف عابر، وأنا سعيد بذلك، فهذا يجعلني أعيش بدون مجاملات اجتماعية لا فائدة منها، وأنجو من لومهم حينما لا أشاركهم في حياتهم التعيسة.. الأمر على ما يرام ما دمت لا أسمع اسمي على ألسنة الناس. في الحقيقة كل أحاسيسي تجاههم أجهضتها، فقدت إحساس الانتماء لهم، ولا يسكنني أي تعاطف تجاههم. كم هم أغبياء، إنهم ساذجون حقًا، لدرجة أنهم يعتقدون ضنك الحياة التي يعيشونها هو امتحان من الله بسبب أعمالهم السيئة، يسعون جاهدين للتقرب إلى الله، لكن لم يتحسن شيء في حياتهم، كل ما يفعلونه هو تحصيل حاصل، حياتهم مملة كئيبة، ما إن يبلغ أحدهم سن البلوغ حتى يفكر في الزواج، لينجب أطفالًا يعيشون في مستنقعات البؤس ويتركهم لقمة سائغة للمعاناة. يعيشون في

عذاب أبدي، وكل ما يفعلونه لا جدوى منه البتة.

يعتقد البعض أن الإنسان حينما يكون في حالة يأس، يكون أقرب إلى الله، لكن منذ فترة بدأ كل شيء يقربني إلى الله يخبو ويزوي، أشعر الآن بأن ما يربطني بالله نهر يابس، ولا جدوى من بناء جسر فوق نهر يابس. أصبحت لا أمارس أي طقس ديني، والدي يلح علي أن أتقرب إلى الله أكثر ليرفع عني العقاب، يطلب مني أن أصلي في المسجد جماعة فلا أفعل، فهو يظن بأن ما حل علي كان عقابًا إلهي.

كنتُ قد تخلصت من عادة احتساء الخمر لشهرين، هي الفترة التي عملت فيها مع والدي في متجره، لكن بعد أن توقفت عن العمل، عدت إلى الشراب مرة أخرى وبشهية أكبر ـ حينما تتكاثف سحب الإحباط في حياة المرء، حتمًا سيجري الماء المقدس في جوفه ـ الخمر الجندي الوحيد القادر على إلقاء القبض على إحباطي، ووضعه في سجن اللاعودة إلى حين الإفاقة. أصبح كأس «العرقي» صديقًا حميمًا، وخير مرافق في الليالي الكئيبة، استيقظ على أشعة الشمس المتسللة عبر ثقب النافذة، أو على الجلبة التي تحدثها أختي وهي تنظف غرفتي وتعيد ترتيب الأشياء المبعثرة دون أن تتذمر، يتسلل الفراغ إلى روحي، لدرجة أنني أجلس وحدي أرعى غنم استيائي، وأراقبُ حركات ذرات الغبار الهائمة في شعاع الشمس المتسللة عبر ثقب النافذة، رغم استيقاظي أظل في سريري دون أن أنهض، وغير آبه بالضجيج الذي تحدثه النسوة اللائي يأتين لإلقاء تحية الصباح على والدتي، أو لنقل بعض الأخبار التافهة، أظل صامتًا لا أحدث أحدًا، حتى والدتي عقدت معها

اتفاقًا غير معلن، بألَّا أزعجها ولا تزعجني هي الأخرى بوصاياها وخطبها المستترة بجلباب الوعظ. أظل في غرفتي حتى وقت الظهيرة ثم أذهب إلى النهر الذي لا يبعد من بيتنا إلا عدة أمتار، أقضي وقتًا طويلًا على شاطئه، أحارب فيها بكل بسالة جنود فراغي، أجلس استغرق في أفكاري، أبوح له أوجاعي بصمت، أحيانًا تنتابني رغبة أن أعبر إلى الضفة الأخرى، لكن سرعان ما أشعر بعجزي وضعفي، فالحياة والنهر كلاهما يحتاج إلى سباح ماهر، حتى يعبر المرء إلى الضفة الأخرى بسلام. أحيانًا أتسلى بالنظرات التي أسرقها من الفتيات اللائي على عتبات مراهقتهن، حينما ينزلن إلى الماء بأجساد عارية إلا من لفافة قماش صغيرة تحيط بأعلى أفخاذهن الرشيقة، ونهود عارية تمامًا لم تعرف أسر حمالات الصدر، أفعل ذلك بدون تلذذ قبل أن أشيح ببصري بعد أن أحس بوقاحة الفعل. أنظر إلى الماء بعينين حائرتين، أرميها بحجر يحدث دوامات تتسع، ثم تتسع حتى تتلاشى.. هكذا أفعل كل يوم، أعود إلى البيت وقتما تجتاحني رغبة العودة، أتجرع كأس العرقي الذي أشتريه من «زينوبة».. الخمر يجعل قارب أفكاري عائمًا في الخيال. أستمع لبوب مارلي، يأخذني الشجن، أقف وسط الغرفة أترنح طربًا، أشعر أني مثل سائق عربة أجرة أجوب الشوارع بدون هدف معين، أتلفت يمينًا ويسارًا لعلي أجد شخصًا يوقفني. أتذكر ما قاله لي عثمان حريري ذات مرة، أن بينه وبين «بوب مارلي» رابطًا مشيميًا ودمًا موغلًا في الزنوجة، أُخذ جده كرقيق إلى جاميكا قبل أن يقضي وطره من امرأة سوداء مثله تمامًا وينجب أمه، وأن اسمه الحقيقي هو «بوبا موري» تم تحريفه إلى «بوب مارلي». حينما

يفرغ عثمان حريري الخمر في جوفه يقول أشياء كثيرة تسقط أمام قانون المنطق، قال لي أيضًا ذات مرة إن مدينة واشنطن أسسها أجداده، الذين أخذوا كعبيد إلى الولايات المتحدة الأمريكية، من قبل تجار الرقيق في ذلك الزمن السحيق الذي تكالب فيه الرجل الأبيض اللعين على قارتنا السمراء، كان أجداده في ذلك الوقت رعاة، وواشنطن كانت تغطيها مروج خضراء، فأخذوا يرعون أبقارهم هناك، وحينما يلتقي أحدهما الآخر يقول له: «وانشر طون» ويعني ارعَ هناك حيث المراعي الجيدة والكلأ الوفير، قبل أن يسكنها البيض ويحرفون اسمها إلى واشنطن، ويضيف جدي بأن المكان الذي نصب فيه تمثال الحرية، كان بئرًا كبيرةً يشربون منها ويسقون فيها أبقارهم قبل أن تجف البئر وينصب في مكانها التمثال.

يأخذني الشجن، أغني على أنغام موسيقى الريغي ويتغمسني روح بوب مارلي، أنصب مسرحًا بخيالي وجماهير غفيرة تردد خلفي:

لا يا امرأة لا تبكي.......

أتذكر حينما كنا نجلس في ساحة الحكومة في ترنشتاون،

نراقب المنافقين وهم يختلطون مع الناس الطيبين الذين نقابلهم،

أصدقاء طيبين كنا نعرفهم.......

أصدقاء طيبون فقدناهم في الطريق.......

في هذا المستقبل المشرق لا يمكن أن تنسى ماضيك

لا يا امراة لا تبكي...........

عتمة وافرة

غادرت الخرطوم تاركًا ورائي كل شيء، حتى وردتي السوداء «عبير» التي تنام على قلبي بهدوء كما الإيمان، تركتها، ليس لأني لا أحبها، أحبها حد التقديس، نعم حد التقديس، لو كان المرء يختار ما يشاء إلهًا له لما اخترت غيرها، ولبنيت لها معبدًا في قلبي، ومع ذلك تركتها، وأَهَلتُ على قبرها تراب الفراق، تعرفت عليها عذراء، وتركتها كذلك، دون أن أعبث بخيوط بكارتها، نصيبي منها قبلة واحدة، حينما قبلتها في عيد ميلادها العشرين، عندما أقامت حفلًا صغيرًا، بعد أن غادر الضيوف، دعتني إلى غرفتها لتريني صورًا لأعياد ميلادها السابقة، أخذت تحكي بفرح قصة كل صورة وهي تقلب ألبوم الصور الوردي، كنت شاردًا في بحر جسدها السماوي، كانت تبدو كملاك صغير، كل شيء فيها يجذبني، بل يقتلني، فستانها البنفسج يجعل جسدها الأسمر الشهي يتداعى، غصت في أعماق الخيال البعيد، لم أعد منه إلا وهي تمسك يدي، اقتربت مني، لم تترك سنتمترًا واحدًا يفصل بيننا، تلاصقت جسدها المتمرد مع جسدي، رأيت رغبة تشتعل في عينيها، مدت ذراعها نحوي، التصقت بصدرها الناهد، شعرت برعشة تجتاح جسمي، غدوت ريشة خفيفة تحلق في السماء، ضممتها بقوة أكبر، داهمتني رغبة في التوغل أكثر،

قبلتها بفم مرتعش، قبلة دشن كرنفالات الفرح في روحي النائية، ظلت تلك القبلة اليتيمة رابطًا مقدسًا بيننا، حتى جاء الفراق، ودعني الجميع بعيون دامعة، بكت «عبير» بكاءً شديدًا حتى أشفقت عليها، وعدتها بأني سأعود قريبًا، أهدتني ساعة وكوب ماء رسمت عليه قارة إفريقيا في وسطها رجل زنجي يمسك بيد فتاة زنجية، لتبقى كذكرى. استقليت البص متجهًا جنوبًا وأنا ألعن مناخ السافنا الفقيرة، وأبصق كرهًا للخرطوم، والأحباط يحتويني بوحشية قاتلة، كل ما حولي يثير استيائي، الموسيقى المنبعثة من جهاز التسجيل، ضحكات الناس على نكتة سمجة، القعقعة التي يحدثها عادم البص، أخذتُ أتصفح صحيفة اشتريتها من بائع جرائد متجول، عندما كان يمر بجوار البص، ويعرض بضاعته للركاب، لأخفي ضجري واستيائي، فقد اعتصمت عن قراءة الصحف لفترة طويلة لعدم جدوى ما يكتبه الصحفيون، أخذت أتصفحها بعينين ناعستين والبص يصلي ركعاته الأولى صوب الجنوب، في الصفحة الأولى خبر عريض باللون الأحمر...82٪ من البنات اللاتي تم استطلاعهن قد تعرضن للتحرش الجنسي...لم أندهش من هذا الخبر، فلا أشعر بأي غرابة في الأمر، انتقلت إلى الصفحة الثانية، امرأة تقتل أطفالها الثلاثة بسبب الفقر... في الصفحة الثالثة إعلان لشركة اتصال... رميت الصحيفة، أخذت أتصفح أفكاري، أتنقل من صفحة إلى أخرى في ذاكرتي، كانت عبير حاضرة في كل هذه الصفحات، تبدو حزينة وهي تلوح لي بالوداع، تمنيت أن يتوقف الوقت، أن ترجع الساعة إلى الوراء، لكي لا تأتي لحظة

الوداع، فكرت أن أوقف البص وأركض بكل قوتي راجعًا إلى عبير، لكن لم أفعل، ظل طيفها يرافقني طول الطريق. الأشياء الجميلة تبقى للحظات، لكن الحزن يصنع منا إنسانًا آخر يرافقنا في كل ناصية، الفراق يجعل المرء كطفل يتيم لا حول له ولا قوة، أن تتذكر إنسانًا فارقته وهو في قمة حاجته إليك كالماء حينما يلامس جرحًا غير ملتئم، كم هو مؤلم. تركتها جسدًا، لكن روحها ترافقني في كل اللحظات. عندما يصبح شخص ما جزءًا من روحك لا يعد النسيان ممكنًا.

عبير أنثى خلاسية، كانت كالأوكسجين في حياتي، أجلس معها لساعات بل لأيام وسنين ولا أرتوي منها أبدًا، نظراتها، ابتسامتها، حركتها، سكونها، كل شيء فيها مختلف، لا مثيل له، فتاة لم أحلم قط في حياتي أن ألتقي بها، دخلت حياتي بغتة كسيل جارف. ابتسامتها خلقت مني إنسانًا جديدًا، متحررًا من كل القيود، نسيت بأني ترعرعت في قرية نائية ومنسية يكاد لا يعلمها إلا أهلها. فتاة حاذقة في كل شيء، تحطم مجداف كل من يسير عكس تيارها، يصل البحّار إلى شاطئها ولكنه لا يشعر بالأمان. منذ أن عرفتها صارت أيامي أكثر إشراقًا، أدخل الجامعة صباحًا، أجدها في انتظاري، نترافق ساعات طويلة، لكن ما إن تفارقني إلا ويشتعل الشوق بقلبي، أصبحت كل شيء بالنسبة لي، أقدم الوقت مهرًا لها، ألوذ بها هاربًا من روتين المحاضرات والمقررات الرتيبة والمملة، أهاجر إلى مدن عينيها المدهشة، ناسجًا صورة زاهية للمستقبل الوردي الذي ينتظرني معها. حينما نكون معًا، تكون حياتي خالية من أي كآبة،

فهي ملاذي، أهرب إليها عندما تهاجمني جيوش الحزن القاسية، إنها البنت التي بذرت في قلبي أول بذرة الحب، الأنثى التي سلمتها دفتر شيكات حياتي لتوقع وتصرف مشاعري وقت ما تشاء. لم تترك لي مجالًا لأتعرف على فتاة غيرها، فهي عالمي ـ فماذا يطلب المرء عندما يملك عالمه الخاص ـ كلما فكرت في خيانتها تراجعت، أشعر بأني وقح وناكر للجميل ـ هل هكذا يكافي المرء لمن أحسن إليه ـ فأتراجع عن الفكرة وأطالبها بالمغفرة في سري، كم شعرت بأني وقح، حينما حاولت خيانتها ذات مرة، عندما عدت إلى القرية كنت قد تعرفت على «عثمان حريري» أذهب إليه بين الفينة والأخرى، في ذلك اليوم ذهبت إليه والشمس تكاد أن تموت، وجدته جالسًا في كرسيه المعتاد في حديقته الصغيرة، وأمامه قارورتان من «العرقي»، إحداهما فارغة والأخرى مليئة، شربت منها كثيرًا دون أن يمنعني، وبعد أن ارتشفتُ آخر قطرات الزجاجة الثانية، قلت له بلا وعي مني:

- أتشوق إلى فتاة بلون القهوة شبقة ناعمة.

قال بهدوء وهو ينظر إلى وجهي البائس:

- لماذا امرأة بهذه المواصفات؟

قلت:

- إن المرأة الزنجية الوحيدة التي تجعلني أنتصب. كم أبغض الفتيات اللواتي يستخدمن مساحيق تفتيح البشرة، تصير وجوههن كأغلفة كتب رديئة، ترى وجوههن مصفرة وما هي بمصفرة ولكن أثر المساحيق

الشديد، يظنن أنهن يصرن أكثر جمالًا، لكن يتحولن إلى وحوش فظيعة.

قال بهدوء أكثر وهو يبتسم:

• ما رأيك أن تقضي غدًا ليلة مجنونة مع فتاة زنجية كما وصفت؟

أومأت برأسي موافقًا قبل أن أغادر مترنحًا عائدًا إلى البيت.

في تلك الليلة كانت مشاعري مهيأة تمامًا للقضاء على عذريتي، ذهبت إلى بيت «عثمان حريري» بعد المغيب، وجدته كالعادة جالسًا في حديقته الصغيرة، رحب بي ببشاشة، قال وهو يشير إلى فتاة كانت في غرفة نومه:

• اذهب إلى زنجيتك الجميلة الشبقة.

كانت فتاة بلون الشوكولاتة، عارية إلا من لباس صغير يغطي ما بين فخذيها، وأثداء مثيرة تنام خلف حمالة صدر أرجوانية، في جيدها تتدلي سلسلة من الخرز، تشبه المغنية «ماريمان فال» في كل شيء، حتى في تصفيفة شعرها، تبدو كجنية هربت من مملكة الجن في الغابات الاستوائية، جلست دون أن أبادر بشيء، كنت مرعوبًا تمامًا، تلك هي المرة الأولى التي أكون فيها مع امرأة ناضجة في غرفة واحدة لا يفصل بيننا إلا بوصات، غير عبير، نهضت وهي تمشي نحوي بإغواء، جلست بجواري، أخذت تداعب شعري بأناملها الرقيقة، حلت أزار قميصي دون أي رد فعل مني، خلعته ووضعته جانبًا، قبلتني بنهم ثم تركتني ومشت ناحية الفراش ولكن لم اتبعها، أشارت إليّ بغنج أن آتي، فأتيت بخجل، خلعت ما تبقى من ملابسي وقذفته في مقعد مجاور، أخذت تلحس بلسانها سائر جسدي، ويدها تعبث بشيء، وهي تصدر تأوهات مفتعلة، لكن لم أنتصب، شيء

كان كثعبان ميت، لا روح فيه، بدأ جسدي يتعرق، تسرب الخوف إلى قلبي، لا أدري من أين دخل، أحسست بأن جدار الغرفة قد انهار وأننا في عراء تمامًا، من خلف الجدران أطلت عبير بوجه حزين، عيناها ممتلئتان بالدموع صحت كالمجنون عبير..عبير...نهضت الفتاة مذعورة وهي تنظر إليّ بذهول، ارتدت ملابسها وحملت حقيبتها ثم غادرت، تركتني أصارع طيف عبير، اقتربت عبير، فتحت ذراعيها لتواسيني، فتحت ذراعي أيضًا لآخذها إلى حضني، فلم أحضن غير السراب تذكرت ما قاله «فؤاد عباس» ذات مرة...أسوأ شيء في الرجل أن لا ينتصب عضوه حينما يرى فتاة جميلة. كان دائمًا ما يتهمني فؤاد عباس بالعاجز جنسيًا، حينما أرفض ممارسة الجنس خارج نطاق الزوجية، كان يتعجب كيف يحتفظ شاب تعدى العشرين من عمره بعذريته. طلب مني كثيرًا أن أرافقه في مغامراته الجنسية ولكني لم أفعل، أقول له إنني لا أزني فالزنا يورث الفقر. يضحك ملء شدقيه قائلًا: يا صديقي أنت تقع في شرك الخزعبلات، أولًا إنها فعل الحب وتبادل اللذة وليس زنا، والإنسان من شيمه يبحث عن اللذة ويتجنب الألم. قبل أن يردف قائلًا بنبرة جادة: إذا كانت ممارسة الجنس خارج حظيرة الزواج تورث الفقر، لأصبح جميع الأغنياء فقراء، فهم أكثر ممارسة للشيء الذي تسميه الزنا.

حاول «عثمان حريري» أن يطمئني، بأن الحالة النفسية السيئة التي أمر بها سببًا في عدم انتصابي، فالرغبة الجنسية مربوطة بالصحة النفسية أكثر من ارتباطها بالصحة الجسمانية، وأنني سأكون بخير في المرة القادمة، لكن

كلماته كانت تشعل في صدري رغبة في البكاء، بكيتُ بحرقة، ذهبت في تلك الساعة إلى «زينوبة» وشربت كما لم أشرب من قبل، أفرغت في جوفي كثيرًا من «العرقي» جعلت جسدي ينهار، لم أستيقظ إلا في اليوم التالي، ووجدت نفسي في بيت زينوبة، حينما سألتها كيف أتيت إلى هنا، لم تجب.

كانت تلك أول وآخر محاولة لخيانة عبير، لم تنتابني أي رغبة جنسية بعد هذه الحادثة، فعبير قد سدت كل المنافذ التي يمكن أن تجعلني أفكر في غيرها، طوطمتني بطواطم حبها. كان حبها مصباحًا أضاء عتمتي، «الحب كالصبح حينما يطل تنقشع العتمة». لكن كل هذا صار مجرد ذكرى تتربص بذاكرتي. اللحظات الجميلة كعقارب الساعة إن مرت لن تعود. إن كان الحب هو الباب الذي ندخل به بكامل إرادتنا، فإن الفراق هو الشباك الذي نخرج منه دون رغبة منا. يجعل الحياة مثل طاولة تقف على رجل واحدة، آيلة للسقوط في أي وقت. كتبت الفراق بيدي، لكن عبير ما برحت تلازم ذاكرتي، عطرها، ابتسامتها المعهودة، إجاباتها المقتضبة، ذكراها تهيمن على تفكيري، ظل طيفها يرافقني في كل الأوقات، تبدو زاهية ومتأنقة بفستانها العنابي وهي تبتسم بكل براءة، أتذكر ضحكتها الطفولية عندما أحكي لها مواقف مضحكة مررت بها، وعدتها أن أحكي لها كل ليلة حينما نتزوج. كانت يدها لا تفارق يدي ونحن عائدان من لقاء حافل في شارع النيل، كانت تعانقني ونحن نعبر الطريق، تقول لي إنها تخاف من السيارات وأتعجب كيف يخاف شخص عاش كل حياته في المدينة من السيارات. فكرت في الاتصال بها كثيرًا لكن لم أستطع، كان

صوتًا قويًا يصدني، كتبت لها رسائل كثيرة دون أن أرسلها. كانت آخر رسالة بعثتها لها حينما قررت مغادرة الخرطوم، عندما لم تمنحني دموعي المنهمرة فرصة محادثتها، قلت لها: «عزيزتي عبير، أود أن أخبرك بأني سأحزم حقائبي مودعًا الخرطوم عائدًا إلى قريتي، ربما أعود إليها مرة أخرى في يوم ما، وربما ألا أعود، فالخرطوم مدينة لا ترحب بمثلي، منذ أن جئتها لم أرَ فيها شيئًا جميلًا غيرك، حطمت كل أحلامي الجميلة وجعلتني أسير على دروب الأحزان، ثلاثة أعوام ـ منذ أن تخرجت ـ والأيام تمضي بإيقاع ممل، وأنا هائم في شوارع الترقب والرجاء، أنام وأصحو على ألم دفين، أجلس على أريكة الأمل منتظرًا إشراق فجر جديد يحمل بارقة السعادة، لكن كل فجر يطل ما هو إلا فجر كاذب، لا يحمل في طياته سوى مزيد من العتمة والأوجاع، وتظل أفكاري تنام فوق جثث أحلامي المجهضة، لذا قررت أن أعود إلى مسقط رأسي، فهناك من هم في انتظاري».

زاكرة الوجع

كنت أشعر في ذلك اليوم برغبة أن أخرج كل ما بداخلي، أريد أحدًا ينصت لي، يأخذ بعضًا من أثقالي، النهر وحده ينصت لي دون أن يتدخل ويوبخني أو يتلو عليّ الخطب اللعينة.. كان النهر هادرًا في تلك الأيام، إنه شهر أغسطس حيث يتحول النهر إلى غول شرس يبتلع كل شيء أمامه، يصدر زفيرًا مفزعًا ومرعبًا، يحمل معه أفرع الأشجار والحيوانات النافقة وجثث موتى، الأمطار حينما تهطل في الهضبة، يكون النهر عكرًا في كل المناطق التي تقع في الشمال، وفي أغسطس تتوقف الفتيات ـ اللائي أستأنس بهن عبر نظراتي التي تحترق أجسادهن التي تتصف بكامل صفات الزنوجة ـ عن الورود إلى النهر فالماء يصبح غير صالح للاستخدام في هذه الفترة. في ذلك اليوم، كنت أجلس كما العادة في ضفة النهر، تحت ظل شجرة النيم المعمرة، التي اعتدت الجلوس عندها، كنت في شرود تام، أحدث نفسي بملل، وأرمي حجرًا في النهر يحدث دوائر تختفي رويدًا رويدًا ، ثم أراقب بطة تسبح في الماء، ياليتني كنت مثلها أستطيع أن أسبح وأطير وأمشي في آن واحد. في تلك اللحظة كنت أردد أغنية: «باتا.. باتا» لمريم ماكيبا، قال:

- أن ترمي حجرًا في بركة راكدة خير من أن تلقي حجرًا في نهر جارٍ.

رفعت رأسي وتطلعت ناحية الصوت، كان رجلًا على مشارف الخمسين، أو هكذا قدرت عمره، فاتح اللون، ذا أنف دقيق مستقيم، وقامة مائلة إلى الطول، وله عينان واسعتان. قال مرة أخرى بعد صمت:

• العزلة العتبة الأولى نحو الجنون.

قلت وأنا ساهم في الفضاء:

• الجنون سياج جبان، يضربه المجتمع حول كل من يريد أن يهرب من ثقافة القطيع، هكذا قال الإنسان نيتشة.

نظر إلي نظرة توحي بالشفقة والعطف، قال وهو ينظر إلى الدوائر التي يحدثها الماء المندفع حينما يصطدم بالصخور:

• ألم تسمع بالمشروع الذي تريد أن تقيمه الحكومة.

قلت مندفعًا بغضب:

• فلتذهب كل القرية إلى الجحيم.

قال مغيرًا اتجاه الحديث:

• لستُ معتادًا المجيء إلى هنا، آتي في كل أسبوع مرة واحدة تقريبًا باحثًا عن الماء والخضرة ـ أكمل جملته وهو يبتسم ابتسامة فارغة ـ والوجه الحسن إن وجد. قال بعد صمت مستدركًا: لكن لاحظت في المرات القليلة التي آتي فيها إلى هنا، أراك جالسًا في هذا المكان وحدك.

قلتُ مؤكدًا دون أن أكلف نفسي عناء النظر في وجهه:

• حينما تهب عاصفة الإحباط على مُدني، وتحرك كثبان الذكريات المؤلمة، آتي إلى هنا لأكون في ضيافة النهر، الذي يرحب بي بكل سعادة،

لأبوح له بأحلامي المحطمة، فلا أحد يجيد الاستماع كالنهر دون أن يتدخل أو يزعجني بخطب الوعظ والإرشاد التي لا تسمنني ولا تغنيني من الإحباط.

قال بنظرات شاردة وهو يتأمل جزع شجرة ضخمة يسحبها الماء في وسط النهر:

• ألم تسمع بفساد أعضاء اللجنة الشعبية، الذي آخره الناموسيات التي أرسلتها منظمة خيرية لتوزع للناس بالمجان، فقاموا ببيعها للناس؟

قلت بغضب:

• فليذهب الجميع إلى الجحيم وأنت معهم.

أخذ يحدق بوجهي كأنه يبحث في قسماته عن إجابة لتعنتي، قال:

• إلى متى تظل في فضاء الإحباط؟

• إلى حين انجلاء العتمة.

• وهل بدأت تعمل لانجلاء العتمة؟

صمتُ دون أن أجاريه في الحديث فأردف قائلًا :

• هل تعتقد أن محاربتك لطواحين الهواء وانزوائك في أسفل قاع الإحباط سيغير من الأمر شيئًا؟

لم أرد عليه.

قال بعد صمت:

• إننا لا ننتمي إلى جيل واحد، أنا أكبر منك سنًا، ربما بأكثر من عقدين، لكن سأكون سعيدًا إن قبلتني صديقًا، وسأكون في انتظارك في

بيتي متى ما شئت.

استدار نصف استدارة قائلًا وهو يبتعد:

• لو تريد أن تستمع لماما أفريكا ـ مريم ماكيبا ـ فلتزرني في البيت.

أتذكر في العام الذي عدت فيه إلى القرية، كان الناس يتحدثون عن المشروع المزمع إقامته في الأراضي التابعة للقرية، أخبرت الحكومة المزارعين بأن خريف ذاك العام، سيكون آخر موسم للزراعة التقليدية في المنطقة، سيتم بعدها إنشاء مشروع آلي كبير، وستقوم الحكومة بتعويض المزارعين بإعطائهم حواشات في المشروع المروي الجديد، الذي يعمل بري دائم، يقيهم تذبذب هطول الأمطار الذي يسود هذه الأيام. وقف «عثمان حريري» ضد هذا المشروع، وقال لذلك الوفد الحكومي الزائر: إن هذا بمثابة مصادرة غير معلنة لأراضي يستغلها الأهالي في الزراعة منذ مئات السنين للاكتفاء الذاتي. الحكومة لم تقل إنها صادرت الأراضي، لكن المشروع الذي أنشأته دليل كافٍ على مصادرة هذه الأراضي. وصف المزارعون بالأغبياء والبلهاء، حينما وقعوا على وثيقة التنازل عن أراضيهم، لم يسمع رأيه أحد آنذاك، فقاد حركة احتجاجية ومعه مجموعة من الشباب، ونفذوا احتجاجات عديدة، أغلقوا الشارع الرئيسي الذي يمر بالقرية والرابط بين المدينة والقرى المجاورة، هددوا بتصعيد القضية ونقل المعركة إلى المدينة، إذا لم تتوقف الحكومة عن إقامة المشروع، مما جعل الحكومة تشن حملات اعتقال واسعة، لم ينج منها كل من شارك في الحركة الاحتجاجية. نعت البعض حينها عثمان حريري ورفاقه

بالهمجيين ومثيري الفتنة، وظلوا قابعين في السجن لشهر كامل لم يفكر فيهم أحد، قبل أن يكتشف المزارعون بعد حين كأس الخداع الذي شربوا منه، فالحكومة لم تفِ بما وعدتهم به، حتى مهمة الزراعة أوكلت لشركة أخرى قامت بجلب عمال من مناطق أخرى.

حدثني أبي ذات مرة أن عثمان حريري كان يحب فتاة جميلة في فجر شبابه، لكن والدها رفض أن يزوجه لها حينما تقدم لخطبتها، فقرر أن لا يتزوج أي فتاة غيرها، سافر إلى العراق وعاش هناك لعدة سنوات، عاد إلى السودان بعد حرب الكويت، ثم سافر مرة أخرى إلى جنوب إفريقيا بعد نهاية نظام الفصل العنصري وقضى هناك أيضًا سبع سنوات، قبل أن يعود ويستقر في السودان ويؤسس بعض الأنشطة التجارية. ويقال بأنه من أسرة مملوكة في عهد السلطنة الزرقاء، وهذا ما جعل والد الفتاة يرفض أن يزوجه ابنته، خوفًا من اختلاط دم الأسياد بدم العبيد، فهؤلاء القوم لا يبحثون عن المال، بقدر ما يبحثون عن المكانة الاجتماعية، حينما تريد خطبة إحدى بناتهم لا يسألونك أسئلة من نوع هل تملك عملًا أو لا، وأين تسكن؟ بل يسألونك ابن من أنت، ويقلبون دفاتر التاريخ، يغوصون في ماضي أجدادك، كأنك شريك في هذا الماضي، هكذا فعل جدي قبل أن يزوج جميع عماتي.

يقع بيته في الحي الجنوبي، فالقرية تنقسم إلى أربعة أحياء، جميع هذه الأحياء تسمى بأسماء الاتجاهات الجغرافية، الحي الجنوبي، الشرقي، الغربي، الشمالي، كل حي يفوق عدد سكانه ألف نسمة، أكبر هذه الأحياء

الحي الذي أسكن فيه وهو الحي الشرقي. لم يكن بيته يختلف كثيرًا عن باقي بيوت القرية سوى به حديقة من الأشجار والزهور المتنوعة التي تجعل البيت ظليلًا دائمًا، وأيضا البيت مبني بالطوب الأحمر والأسمنت، أما معظم المباني المجاورة له كانت مبنية بالطين، وتبدو بائسة مثل سكانها.
كان العاشر من نوفمبر حينما زرته لأول مرة. عندما طرقت الباب كانت موسيقى الجاز الممزوجة بإيقاع إفريقي راقص تنبعث من جهاز التسجيل، يصاحبها صوت المغنية الجنوب إفريقية «مريم ماكيبا » بأنينها الباكي وشجنها الملوع، كان بكاء غنائيًا ، لم أطل الانتظار حتى فتح لي الباب، كان يرتدي، جلباب نوم رمادي يغطي جسده الفارع، ويمسك سيجارة في أنفاسها الأخيرة، ويبدو على نحو كئيب، جلس على الكرسي واسترخى تمامًا وأشار إلي أن أجلس في الكرسي الآخر، دون أن يتفوه بكلمة، انتهت الأغنية وبدأت أغنية أخرى بصوت ذات الفنانة، أخرج سيجارة وأشعلها ومد لي واحدة، فشكرته بأني لا أدخن. وقلت له: كثيرًا ما اقترحت على نفسي التدخين، إنه يجعل المرء أكثر حداثة، أو على الأقل يعلن عن رجولتي كما كنت أعتقد، كل أقراني حينما وصلوا سن الخامسة عشرة أصبحوا يدخنون، ليعلنوا للملأ بأنهم ولجوا مرحلة الرجولة، إلا أنا وحدي لا أدخن، ما إن أشعل سيجارة إلا وتموت رغبة التدخين في داخلي وتتحول إلى ركام من العزوف والابتعاد عن التدخين، أشعل سيجارة ولا أدخنها، أمسكها في يدي، أتأملها تحترق مثل حياتي تمامًا، ويتبخر نيكوتينها مثلما تبخرت أحلامي.

بعد صمت طويل أخذ نفسًا عميقًا ثم رحب بي وقال:

• أعتذر بأنك وجدتني على هذه الحال.

صمت برهة ثم واصل الحديث والفضول يجتاحني:

إنه العاشر من نوفمبر، يوم وفاة أيقونة التحرر والانعتاق ـ الأم مريم ماكيبا ـ وحي ضحايا القمع في كل مكان في العالم، خمسون عامًا وهي ترقص بجسدها الأسمر في انتظار شروق شمس الحرية. ساد لحظة من الصمت وأنا أتفحص ملامحه بدقة ويتيح لي ذلك الإضاءة الساقطة على وجهه والمنبعثة من لمبة النيون، كان يغزو رأسه بعض الشيب، رأيت ندبة في خده الأيسر لم ألاحظها في المرة الماضية.

أردف بعد صمت: منذ أن عدت من جنوب إفريقيا، كلما أشعر بانكسار ووهن، أتأمل عينيها الواسعتين الفرحتين أو أسمع صوتها، كان هذا كفيلًا بجبر كل انكساراتي، صورتها تبعث في النفس سعادة غامرة، وصوتها يعطي شعورًا بالأمل كما يقول ماديبا. قبل عشر سنوات عدت من العراق بعد حرب الخليج لكن لم أستطع أن أستقر في السودان، سافرت إلى جنوب إفريقيا نقلت عملي إلى هناك، أقمت في الضاحية الجنوبية لجوهانسبيرج، وكانت تسكن أيضًا هناك، كان الجميع يحييها كل صباح، يقول لها، كيف حالك أيتها الأم. ذات مرة قررت أن أزورها، أخبرني رجل أبيض يسكن في نفس العمارة التي أسكن فيها بأنها توجد طوال اليوم في مركز تأهيل الفتيات المراهقات والمشردات التي أنشأتها وأعطاني عنوان المركز ، كان الأمر يسيرًا فقد كان المركز ينتصب في ذات

الحي الذي أسكن فيه ولا يبعد سوى مسافة ربع ساعة.. كان المكان هادئًا في ذلك الوقت، وجدت فتاة بيضاء نحيلة تنظف أرضية المكان، سألتها عن ماما مريم، أشارت إلى امرأة تجلس في إحدى المقاعد ترتدي معطفًا أبيض وتقرأ أحد الكتب، ثم واصلت عملها بجدية دون أن تضيف شيئًا آخر، تقدمت نحوها، وما إن رأتني حتى وقفت منتصبة بوجه ودود، وفتحت ذراعيها مرحبة بي وصافحتني بقوة، قلت لها:

• أرجو أن لا أكون قد قطعت لك متعة القراءة؟

قالت بصوت هادئ:

• لا عليك، فقد قرأت هذه الرواية مرات كثيرة.

أردفت وهي تنظر إلى غلاف الكتاب:

• إنها رواية «الأشياء تتداعى» للكاتب النيجيري العظيم «تشنوا اتشبي»، المرء لا يمل منها أبدًا، مثل الكتاب المقدس، تقرأه كل يوم دون أن تمل، وفي كل قراءة تكتشف متعة وأشياء أخرى لم تكن قد انتبهت لها من قبل.

ما إن أخبرتها أني من السودان، إلا وحدثتني كثيرًا عن السودان، وعن السهرة الغنائية التي أحيتها في المسرح القومي بأمدرمان في أواخر السبعينيات، تحسرت كثيرًا على الحرب التي تدور في الجنوب، وتمنت أن ينتهي الاحتراب، ويسود السلام. تجاذبنا الحديث لأكثر من ساعة، قبل أن أودعها عائدًا إلى سكني، بعدها تكررت الزيارة مرات كثيرة، كنت أزورها بين الفينة والأخرى، في أيام الأحد والجمعة. ما إن أنهى عثمان

حريري جملته هذه، إلا ودخل في حالة روحانية حينما انبعث من جهاز التسجيل صوت المغني المالي «ساليف كيتا » وهو يغني أغنيته الشهيرة «ياموري»، انتابني فضول بأن أتفحص البيت، تركته في حالته الروحانية، مشيت بخفة أتفحص، كان البيت يتكون من ثلاث غرف، الغرفة الأولى لا تثير الاهتمام، عبارة عن صالون لاستقبال الضيوف بها بعض المقاعد الفاخرة ويغطي الموكيت أرضيتها، أما الغرفة الثانية فهي غرفة النوم، أما الغرفة الثالثة كانت عبارة عن مكتبة كبيرة فيها مئات الكتب وشرائط الكاسيت ومقتنيات ثمينة، كان هناك جناح كامل للكتب الإفريقية خاصة الأدب، تجد تشنوا اتشبي، كوفي أنوار، ليوبولد سينجور، محمد مفتاح الفيتوري، أمادو همباتي، وول سوينكا، الطيب صالح، تشيماماندا نجوزي... معظم الكتاب الأفارقة حاضرون بين أرفف المكتبة بلغات شتى، الإنجليزية، السواحلية، الفرنسية، العربية. أيضا في المكتبة قسم كامل مخصص للموسيقي، تجد فيها فنانين من جنسيات مختلفة أثيوبيين، ماليين، كينيين، سودانيين، في الطرف الآخر كانت صورة مريم ماكيبا تأخذ حيزًا كبيرًا من الجدران، في الصورة يحضنها مانديلا وهي تبتسم ابتسامة ناصعة حالمة، مكتوب تحتها بخط كوفي.. عودي إلينا يا إفريقيا.. والعبارة اسم لأول فليم وثائقي مثلته والذي بسببه تم سحب جواز سفرها من قبل نظام التفرقة العنصرية، من غير بعيد وقع في عيني كتاب، يقع بين كتابين الأول للكاتبة النيجيرية تشيماندا نجوزى أديشي «نصف شمس صفراء»، والآخر للكاتب الغابوني جان ديفا سانياما «رحلة العم

ما». كان الكتاب بعنوان «ماكيبا: قصتي» وعلى ظهره صورة مريم ماكيبا وهي تضع تاجًا، حركني الفضول بأن أفتح هذا الكتاب، أول صفحته يحمل توقيعًا لها بقلم أسود وبخط واضح تحت هذه الجملة «إهداء من المواطنة العالمية إلى سوداني نبيل». طلبت منه ذات مرة أن يستعيرني كتبًا فرفض، قال لي: هنالك غبيان في العالم، الأول هو من يعير كتابه، والثاني من يعيد كتابًا استعاره، المكتبة مفتوحة أمامك اقرأ ما شئت وقت ما تشاء دون أن تخرج بكتاب. حينما خرجت من المكتبة، وجدته نصف نائم، يردد:

نحن أبناء المطر
كانت البداية، حينما خير الله الأسلاف، بين الغابة والمطر
فاختاروا أن يكونوا أبناء المطر
اختاروا السواد، فلنغني للمطر
اللون الأسود يميزنا، البيض ناهبوا ثروتنا
فلنغني للغابة، الطغاة سارقوا أحلامنا
فلنغني لإفريقيا، المجد لنا

رعد الذاكرة

بدأ كل شيء كحلم من أحلام أفلاطون، ما زالت صور لحظاتي الأولى في جامعة الخرطوم في كامل حضورها على ذهني، أنا الوحيد الذي التحقت في ذلك العام من أبناء قريتي بجامعة الخرطوم، بعد إحرازي نسبة فاقت الثمانين أهلتني للالتحاق بأم الجامعات كما يطلق عليها في السودان، وقد كانت عصية على الطلاب غير المتفوقين. كان الجميع ينظر إليّ بعين الفخر في ذلك الوقت. صارت أيامي الأولى في الجامعة على أحسن حال.. هكذا أفعل في الأيام الأولى، أمارس فريضة التجول كقروي ضل طريقه إلى المدينة، أتفحص الأشياء بحب استطلاع طفولي، أتلفت يمينًا ويسارًا كأني أبحث عن شيء تائه، تنتابني رغبة أن أسبر غور كل شيء حولي، أراقب الناس بدهشة، سحناتهم توحي بأنهم من مشارب شتى، لكن يجمعهم مصير مشترك وهدف واحد. كانت الأفكار تهطل على عقلي بلا توقف، أشعر كأنما ولدت لساعتي وعقلي صفحة بيضاء، فكل الأشياء تجعل المرء يمد حبال أحلامه بلا نهاية، تتملكني رغبة جامحة للغوص في أبعد الأمكنة، الأشياء المستحيلة تبدو وكأنها تلامس الواقع. أقف متأملًا مباني جامعة الخرطوم، كلية غردون التذكارية، بمعمارها الخالد والبديع، المنحوت بأيدي ماهرة وعناية فائقة، المباني تقف شامخة تحكي عن عبق

ماضٍ لن يتكرر، أغوص في ذكريات الطفولة، أتذكر أمنيتي التي كانت تراودني في حصة التاريخ عندما كنت في المرحلة الثانوية، أن أرى تمثال غردون باشا، لكن صدمتني مُدرسة مادة التاريخ حينما أخبرتني بأنه تم نقل التمثال إلى بريطانيا بعد الاستقلال مباشرة، عندما اعتبرت الحكومة الوطنية الأولى التمثال مجرد صنم وبقايا تذكر الناس بالعهد الاستعماري البغيض، وظننت بذلك ستطوي صفحة من صفحات التاريخ. الصغار يمدون حبال خيالهم ولكن حينما يكبرون يكتشفون بأن ليست كل الأشياء كما تصوروها. هذه الأمنية ليست وحدها التي راودتني من الأماني، كانت لدي أمنية أخرى، أن أرى جزيرة توتي، كانت صورة الجزيرة تكبر وتتسع في مخيلتي كلما أقرأ قصيدة الشاعر السوداني التجاني يوسف بشير «توتي في الصباح » حينما يصف توتي بدرة حفها النيل واحتواها البر، وتزيد المعلمة شغفي لرؤية توتي حينما تشرح لنا بأن الدرة هي حجر كريم، لكن بعد أن زرتها في الرحلة التي أقامتها الدفعة في السنة الأولى، تبددت الصورة، فتوتي لم تعُد تلك الدرة التي رسمتها في مخيتلي، فهي تماثل جزرًا كثيرة في منطقتي، بل تفوقها جمالًا، اكتشفت بأن الأمر ما هو إلا مجرد مخيلة الشاعر المتخمة بالمبالغة.

قضيت خمس سنوات في السكن الطلابي، طوال تلك السنوات كنت أسكن في الغرفة رقم «30 » مع «كوجاك كبشور، ومصعب الصادق، وفؤاد عباس» كنا نجسد خريطة السودان بكل تنوعها وتناقضها أيضًا، كل منا يمثل اتجاهًا جغرافيًا، كوجاك كبشور من جبال النوبة، وفؤاد

عباس من دارفور أما مصعب الصادق من شرق السودان لكن أصوله تعود إلى شمال السودان، وأنا من الجنوب الجديد كما يقال في الإعلام الرسمي. لكل منا توجه واهتمام مختلف، فكوجاك كان ثوريًا بالمعنى الممتلئ للكلمة، يثور حتى في أحلامه، يشك في كل شيء، ويتوجس من أي شخص، لا يخرج من السكن الطلابي إلا وهو يحمل خنجره في خاصرتهِ، يقول إن الناس من حوله ذئاب وإن لم يكن ذئبًا ستأكله الذئاب، ومع ذلك لم ينتمِ لأي حزب سياسي، يكره التنظيمات السياسية ويراها مجرد لافتات لامعة لا تلد غير الفشل. أما مصعب الصادق فكان سياسيًا حاذقًا له مشروع حداثي يؤمن به حد التضحية، يتمنى أن تكون له ألف روح ليضحي بها من أجل المبادئ التي يؤمن بها، كان لا يبدأ يومه إلا بعد أن يقرأ لأبكر آدم إسماعيل أو محمد جلال هاشم أو الفيلسوف المصري مراد وهبة، فحينما يستيقظ يظل جالسًا بصمت في سريره لمدة نصف ساعة يسميها لحظات التأمل. كان أبيض اللون أكثر منا جميعًا لذا كنا نناديه بالحلبي. رابعنا هو فؤاد عباس، فإذا أردت أن تدخل عالمه لا بد أن تملك مفتاح النساء، فهو لا ينشط إلا في مؤخرات النساء كما يقول، لا يرى في الحياة شيئًا يستحق العناء سوى الحصول على المضاجعة، حينما يتعرف على فتاة لا يتركها حتى يفوز بموعد غرامي معها، يعرف جيدًا كيف يأكل قلوب النساء ويؤجج مشاعرهن. أما أنا فأمسك العصا من النصف، وأتبنى فلسفة الحياد، لا أجيد العزف على أوتار عواطف النساء كفؤاد عباس، ولم أحب فتاة غير عبير، ولا يستهويني العراك السياسي

كمصعب الصادق، بل لم أشترك في أي تظاهرة إلى أن تخرجت، فما إن أستنشق رائحة اندلاع التظاهرة حتى أغادر الجامعة فورًا عائدًا إلى السكن الطلابي أو أذهب أي مكان آخر إلى أن تنطفئ نار التظاهرة، كنت لا أرى فائدة من التظاهرات التي تخرج، كانت مجرد هبة صغيرة سرعان ما تخمدها الشرطة بالبمبان قبل أن تصل البوابة الرئيسية، فالمتظاهرون يطلقون سيقانهم للرياح بسماع صوت الرصاص المطاطي، كنت أندهش، ما إن تخمد التظاهرة اليوم إلا وتجددت غدًا، الطلاب لا يملون ولكن لا يجنون سوى الاختناق بالبمبان، كنت أقول بأن البعض منهم وصل مرحلة إدمان البمبان إذا لم يستنشقه يوميًا يحس بأنه فقد شيئًا عظيمًا مثل مدمن المخدرات، وأدت التظاهرات إلى إغلاق الجامعة عدة مرات، كنت لا أرى جدوى من كل هذا، أتبنى سياسة اللاعنف كمهاتما غاندي، أؤمن بأن العنف دائمًا ليس الوسيلة المناسبة لحل الخلافات.

دائمًا ما تتحول الغرفة إلى ركن نقاش، خصوصًا في أيام العطل حيث يكون الجميع موجودًا في السكن الطلابي، تنقل المعركة من شارع المين إلى الغرفة 30، يتم تبادل الاتهامات بين كوجاك ومصعب، كل يريد أن ينسف مبادئ وحجة الآخر ويغتال شخصيته، يصف كوجاك، مصعب بأنه منبت وابن حرام سياسيًا ولج السياسة من الباب الخاطئ، يرد مصعب بدوره قائلًا بأن كوجاك عدو التغير وأن النقاء العرقي ليس صكًا لممارسة السياسة وأن على عبداللطيف قائد جمعية اللواء لأبيض ومفجر ثورة 1924 كان منبت سياسيًا. يتصاعد دخان النقاش وتفوح

رائحة الاتهام مرة أخرى، يتهم مصعب في هذه المرة كوجاك بأنه خلية نائمة، وهذا الاسم يطلق على أي شخص يُشك بأنه مندس، ويحتج مصعب بأن كوجاك لم ينل شرف الاعتقال، قبل أن يفند كوجاك هذا الادعاء ويدافع بأن لديه حسًا أمنيًا ويتصرف في اللحظة المناسبة دون أن يعتقل. كثيرون يظنون بأن الاعتقال يصنع من السياسي بطلًا، لا بد أن يقدم السياسي نفسه كقربان للتغيير، مثل الذي يتعلم السباحة لأول مرة لا بد أن يغرق حتى يتعلم، والسياسي لا بد أن يعتقل مثنى وثلاث ورباع حتى ينضج سياسيًا. فهو لا ينال صكوك الإيمان بالقضية ما لم يعتقل. كثيرون لا يعلمون بأن السجون مليئة بالأبرياء، كثيرون ذاقوا عتمة السجن دون أن يكون لهم أي انتماء حزبي أو نشاط سياسي، أنا من هؤلاء الأبرياء، فقد نلت شرف السجن - إن كان للسجن شرف - فقد تم اعتقالي ذات مرة مع عشرات الطلاب دون أن نشارك في تظاهرة أو نهتف ضد النظام، تم اعتقالنا حينما داهمت الشرطة السكن الطلابي في ساعة متأخرة من الليل لأسباب لا نعلمها، ووجهت لنا تهمة الإزعاج العام، حينها قال أحد الطلاب الساخرين معلقًا على التهمة الموجهة ضدنا.. ربما شخيرنا أزعج الحاكم وهو نائم في قصره! أتذكر كم طغت الدهشة على ملامح السجناء حينما علموا بأننا طلاب جامعة الخرطوم، علت الحسرة وجوههم وأفئدتهم، قال قائلا منهم بعد أن لعن الحكومة وتحسر على الزمن الجميل الذي كان فيه لطلاب جامعة الخرطوم الهيبة والتقدير: إن كان قادة المستقبل يتم التعامل معهم هكذا فلا مستقبل يرجى لهذه البلاد!

حينما جاء أمر الإفراج عنا أقاموا لنا حفلا صغيرا ثم أجهشوا بالبكاء ونحن نغادر الزنزانة، في الحقيقة هم أناس طيبون ومثقفون، ناقشونا في أمور كثيرة بأذهان متقدة تنم عن معرفة راسخة، ربما بعضهم لم يدخل المدرسة في حياته، لكن الحياة وحدها مدرسة، فهي كفيلة أن تعلم المرء ما لم يكن يعلم، ففي هذا الزمن الوجيز الذي لم يتجاوز 24 ساعة نمت بيننا صداقة كأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل، احتججنا ورفضنا تناول الطعام حينما قسمنا العسكر إلى جماعتين في الإفطار بحيث نحن الطلاب نتناول الطعام وحدنا وبقية السجناء يأكلون وحدهم، قال أحد الطلاب مخاطبًا الضابط المناوب الذي جاء يستفسر من الأمر بعد أن وصله خبر احتجاجنا: أتريدون أن تقسمونا حتى في السجن بعدما قسمتم الوطن؟ وانتصرنا في نهاية الأمر، فقد تناولنا الإفطار معًا بمودة وحب.

يبلغ النقاش قمة صعوده، يشكك كوجاك في سودانية مصعب الصادق، يصفه بأنه من المماليك الذين فروا من بطش محمد على باشا ودخلوا السودان في القرن التاسع عشر، كان مصعب فاتح اللون مما يعطي كوجاك حق الادعاء، إذ يقول كوجاك بأن السودان للسود وأن كل من ليس بأسود فهو ليس بسوداني. يفور حينها مصعب الصادق ويصفه بأنه إنسان مؤدلج والمأدلجون في اعتقاده يهمشون الواقع ويلونون الأشياء حسب أفكارهم لخدمة أجندتهم دون مرعاة للفوارق الزمانية والمكانية. يتجدد هذا النقاش الصفري الذي لا يلد غير الخصومات والعداوة كل مرة، قبل أن يتدخل فؤاد عباس وينسفهم جميعًا قائلًا بأن الثورة الحقيقية

هي الثورة العاطفية وما دونها هراء.

كان دوي النقاش يصل عنان السماء، حينما ينضم إليهم خالد مصطفى الطالب بكلية الاقتصاد، كان خالد ذا ميول إسلامية مما يجعل المعركة حامية ويتحالف حينها كوجاك مع مصعب، برغم بعض شظايا التجريح التي تصيب خالد لكن العلاقة بينه وبينهم لم تنهَر، فكثيرًا ما غادر الغرفة غاضبًا لكن ما إن تشرق شمس اليوم التالي إلا وقد انقشع منه الغضب، كثيرًا ما تساءلت كيف تجتمع النار والثلج معا، إن ما يجمعهم أكثر مما يفرقهم، دائما لا يتفقون ولا يختلفون، سألت مصعب الصادق ذات مرة كيف يصادق خالد ولا يجمعه أدنى وفاق فكري أو سياسي، رد علي حينها قائلًا : ليست في السياسة عداوة دائمة ولا صداقة أبدية، السياسيون يعملون بهذا المبدأ، يتعاونون مع الشيطان الرجيم إن دعت الضرورة، والناس جميعًا ميكافليين وبرغماتيين وعلى المرء ألا يسبح عكس الأمواج حتى لا تحطمه.

كان خالد ما إن يتحدث عن تطبيق الشريعة الإسلامية وشوقه لوحدة الإسلاميين من جديد حتى يفور مصعب الصادق كالتنور قائلا:

- لا نحتاج إلى تحالفات دينية بقدر ما نحتاج إلى ترسيخ قيم الإنسانية.

يعترض خالد:

- الدين مهم لإنعاش الروح.

يقول كوجاك ناقدًا:

- بقدر أهمية الطقوس الدينية لإنعاش الروح، القدرة الاقتصادية

مهمة لإسكات الأجواف الفارغة.

يسهب مصعب في الحديث:

• نحن بحاجة إلى نظام علماني يقدم السلطة الدنيوية على السلطة الروحية.

يتدخل خالد مستفسرًا ومعترضًا في آن واحد:

• هل تعتقد بأن النظام العلماني سيضع حدًا لمعاناتنا.

يقول مصعب:

• أي نظام لم يخلق إنسانية الإنسان ولم يرتقِ به فلا خير فيه.

هكذا يصير النقاش بهذا الإيقاع المحموم ويتحول إلى تراشق بالكلمات الجارحة والعبارات النابية أحيانا، ويكون لفؤاد عباس القول الحاسم، لا يخلو أيضًا الجو من بعض المزاح أحيانًا، تتحول المناكفات إلى مرح، كأنهم يتعاملون وفق قاعدة لا سلام دون حرب، يقول مصعب الصادق مازحًا: سوف أخصص فصلًا كاملًا في مذكراتي أسميه: «أناس في حياتي أكرههم بقدر ما أحبهم»، وإنني حين أصبح رئيسًا للحكومة سوف أستحدث حقائب وزارية جديدة في حكومتي وسيكون هنالك المرشد الأعلى للعلاقات العاطفية، وهذا المنصب لفؤاد عباس، أما كوجاك فسيكون وزيرًا للدفاع لحسه الأمني واستعداده الدائم لمواجهة أي عدون خارجي، أما أنا فيشير إلي قائلًا: بما أنك بائس والبائسون عندي هم الذين دائما يبقون على الحياد فسوف أنصبك شيخًا للبائسين وسأجعل لك قبة تزار بعد أن تفنى.

أطلال ذكريات

أتذكر كل شيء، كأنه منقوش في ذكراتي، كان الصباح بهيًا ومشرقًا في ذلك اليوم، كل الأشياء من حولي تتوهج، غادرت السكن الطلابي مسرعًا لألحق بمحاضرة العاشرة، التي كانت في قاعة «102»، صعدتُ المدرج حتى وصلت إلى منتصف القاعة ثم جلست في مكان شاغر، كانت القاعة مليئة بالضجيج، حينما دخل المحاضر تحول الضجيج إلى سكون، وخلد الجميع إلى الهدوء وبان عليهم الجد، لملمت دفاتري واصطنعت الاهتمام، ما إن بدأ المحاضر محاضرته حتى علت هتافات داوية من الجهة الشرقية باتجاه شارع المين، وأخذت الأصوات تعلو، تساءل الجميع بصمت، ما هذا؟ ولكن لا أحد يملك إجابة شافية، أخذت الأصوات تعلو شيئًا فشيئًا وتقترب أكثر فأكثر، توقف المحاضر عن الحديث وفتح الباب حريصًا محاذرًا، ونحن الطلاب أخذنا نسترق النظر عبر النوافذ، رأينا مجموعة من الطلاب يهتفون ويرددون شعارات مختلفة تدعو إلى السلام والعدل والحرية.

من ثقب في النافذة رأيت ثلة من الناس علي متن عربة بوكس، وهم يحملون أسلحة بيضاء، وفي ظهورهم حقائب سوداء عرفت فيها بعد أنها مليئة بزجاج الملتوف الحارق. أحكم المحاضر إغلاق الباب حينما تيقن

بأن صداما ما سيقع بين هاتين الجماعتين المتنافرتين، عاد وجلس في مقعد مخصص للمحاضرين وقد خارت قواه من القلق والاضطراب، أخرج منديلًا من جيبه وجفف عرقه السائل، ثم رفع رأسه ونظر إلى وجوهنا الشاحبة المذهولة التي لم تستطع أن تفك طلاسم ما يحدث، سحابة من الخوف طغت على ملامحنا البريئة، الأصوات تعلو وهتافات قوية تدوي، الجو خانق، الكل في حالة وجل ورعب كأنها لحظة خروج الدابة، تفحص المحاضر وجوهنا، لم يرَ غير القلق الذي هبط على قلوبنا البضة ثم قال بعد أن جفف عرقه السائل:

• أعلم بأن ما يحدث غريبًا عليكم لحداثتكم في هذه المؤسسة التعليمية العريقة، أما نحن فقد اعتدناه كثيرًا منذ عشرات السنين، دائما ما يسبق الهدوء لحظات اضطراب، الحوار يتحول إلى عنف، فما إن تختلف طائفتان إلا ويتحول السكون إلى فوضى سياسية عارمة.

أردف قائلًا بعد صمت حزين:

• لا يمر عام دراسي كامل دون أن يحدث عنف، يصاب فيه أناس أبرياء، كثير من الطلاب قتلوا، دون أن يحاكم الجاني، مكاتب ومعامل تحرق وتدمر، حتي الموظفين والعمال لا يسلمون من هذه الأحداث، يتم إخراج الأساتذة من قاعة الدرس بطريقة مهينة، ليس لديهم حيلة في إيقاف هذا العبث.

ما زالت الأصوات تعلو وتقترب:

• من المؤسف أن الذين يقومون بهذه الفعل، هم أهل الفكر والرأي

في المستقبل، وأن كل التنظيمات الطلابية ما هي إلا مرآة لأحزابها الأم خارج الجامعة.

مسح مرة أخرى بعينيه عبر النافذة إلى الخارج والأصوات تعلو وتقترب، الجميع حائر حيال ما يجري، قلة من الطلاب تسمروا في أماكنهم مشدوهين، عاد مرة أخرى وجلس ثم قال:

• هنالك من يحبون أن تشيع الفتنة بين الناس وتتأجج نارها، يفضلون إيصال أصواتهم بالعنف لا بالمنطق، بدلًا من أن يدخلوا الجامعة بأقلامهم، يدخلونها بأسلحة، والإنسان عندما يفقد المنطق يستخدم القوة.

صمت المحاضر، سيطر عليه يأس وإحباط قاتلان، الجميع مذهولون حيال ما يجري، تتلاطم في أذهاننا أسئلة حائرة، ازداد ذهولنا بعد أن طرق صوت الرصاص آذاننا، الدقائق تمر وكلما مرت دقيقة يزداد قلقنا واضطرابنا، تجمد كل شيء داخل القاعة حتى أنفاسنا، في لحظة ما كل الصور الجميلة التي رسمتها في ذهني باتت في مهب الريح، الأحلام تبددت وتلاشت. لماذا الأشياء تنقلب بهذه السرعة؟ الكل يائس كأنما حلت بهم لعنة السماء، الأذهان شاردة ما تزال عاجزة عن فهم ما يحدث، أخذت الأصوات تبتعد وتبتعد ثم تبتعد فتح المحاضر باب القاعة على مصراعيه وأشار إلينا بالمغادرة مسرعين حذرين، الكل يركض فزعًا، يركضون من كل صوب وحدب، يفرون بجلودهم إلى الخارج كأنهم في سباق مارثوني، كل يريد أن يسبق الآخر، البعض يسقط على الأرض

بحركة بهلوانية ثم ينهض مرة أخرى راكضًا في مشهد درامي، القاعة في نقص مضطرد ومريب ثم أصبحت خاوية من الناس كمدينة الموتى، حتى بقيت أنا وفتاة واحدة همت بالمغادرة ولكنها كانت عاجزة عن الحركة تمامًا، كان جسمها يتفصد عرقًا بلل مكياجها كزير واسع المسام، صدرها يصعد ويهبط بعنف، ترتعش من رأسها إلى أخمص قدميها كأنها في فاصل من رقصة شعبية على إيقاع الطبول. تبدو أكثر صدمة وتأثرًا من غيرها، مددت لها يدي لكي أساعدها على النهوض، لكن كانت لا تقوى على الوقوف، رفعتها من كتفيها واتكأت على صدري، حينما خرجنا من القاعة كان المكان خاليًا من الناس إلا من الفارين هنا وهناك، ترى بوضوح أبعد نقطة من البوابة الرئيسية إلى كلية العلوم، ومن بوابة النشاط إلى الميدان الغربي. غادرنا نحو الخارج والفتاة تتنفس بصعوبة بالغة والخوف يتملكها وأنا أمسك بذراعيها لأساعدها على المشي، حاولت أن أهدئ من روعها لكن بلا جدوى، كانت منهارة تمامًا من فرط الخوف، في الطريق رأيتُ جماعة ملثمين يضربون شابًا في الميدان الغربي ضربًا مبرحًا وهو يئن ويتأوه ويصرخ، محاولًا رد السواطير عن رأسه الدامي، قبل أن يتركوه ملقي وقد تلونت الأرض بلون دمه القاني دون أن يلقي له أحد بالًا. شققنا الطريق والفتاة متكئة على كتفي الأيسر، كانت لحظات مأساوية تمر ببطء شديد.

جاءت الشرطة بسياراتها المبرقعة اللون، نزلوا بأحذيتهم الثقيلة وخوذاتهم التي تقيهم من وابل الحجارة التي يمطرهم بها الطلاب

الغاضبون، قبل أن يتصدوا لحشد الطلاب الغاضبين الذين وقفوا في عرض شارع الجامعة بالقرب من نادي الأساتذة وأخذوا يهتفون بشعارات معادية للسلطة والعسكر وتدعو للثورة، وقعت معركة بين الطرفين، أمطر الطلاب الشرطة بالحجارة، أطلقت بدورها الغاز المسيل للدموع، وبعد أن وجدت مقاومة أطلقت الشرطة الرصاص المطاطي والرصاص الحي لإخافة المحتجين، تحول المشهد إلى كر وفر وغطى الدخان الكثيف سماء المكان، أخذ الجميع يبحث عن مكان للاحتماء وسط صرخات عالية ومدوية، من هناك تعثر شرطي ووقع في أيدي الطلاب الغاضبين، ركله الجميع حتى فقد وعيه قبل أن يتدخل زملاؤه وينقذونه، فر الطلاب المحتجون وانتشروا في الشوارع الخلفية وواصلوا هتافهم، لاحقتهم الشرطة هناك، بعض منهم ذهب إلى شارع البرلمان والبعض الآخر أغلق شارع الجامعة عند النفق، حرقوا الإطارات مما شل الحركة تمامًا، كانت الشرطة تطلق الغاز المسيل للدموع والرصاص في الهواء بغير هدف أينما وجدت حشودًا وتجمعًا من الناس. تبطش بعشوائية لا تفرق بين أحد، يضربون بلا هدف، غايتهم أن يفرقوا المظاهرة بأي ثمن، ربما هذا أول درس تعلموه في مكافحة الشغب.

عبرنا شارع الجامعة وجسمها الثقيل متكئ على كتفي الأيسر، سرى خدر في كتفي إلا أني تجاهلته، فالرجال مواقف كما يقال ففي مثل هذه المواقف واللحظات تظهر معادن الرجال الأصيلة، وقفنا في شارع الجمهورية بالقرب من مبنى الاتحاد الأوروبي ننتظر العربات القادمة من

السوق العربي، كان خلق كثير ينتظرون المواصلات، يملأهم الملل كأنهم واقفون منذ زمن سحيق، وعيونهم شاخصة إلى أبعد نقطة يمكن أن تراها العين البشرية، الصمت يسود كل الوجوه الواقفة المنتظرة، بالإمكان سماع دقات قلبك بوضوح، كل الحافلات التي أتت كانت مكتظة بالركاب، ليس فيها مكان خالٍ للركوب، أخذنا نلوح لها بيأس دون أن تتوقف، كانت تعبر مسرعة، ظل الجميع يتابع بصمت حزين، قطع الصمت رجل ستيني يرتدي نظارات طبية حينما سأل مستفهمًا عن ما جرى، وقبل أن يكمل سؤاله أجابت امرأة أربعينية تقف بجواره وتشاركه الملل، قالت:

- تقول الحكومة إنهم طلبة مخربون.

رد عليها بسؤال آخر وهو يرمقها بنظرات الاستهجان:

- هل تصدقين ما تقوله الحكومة؟

قالت المرأة بنبرة يائسة:

- في هذه الزمن لا نعرف من الصادق ومن الكاذب.

نصف ساعة ونحن نلوح للحافلات بيأس وملل، حتى تتوقف حافلة بها مقاعد شاغرة، أمسكت بيد الفتاة وساعدتها على الصعود دون أن أعرف وجهتها، كل ما يهمني أن تغادر هذا المكان، غادرت الحافلة دون أن تلوح لي الفتاة بالوداع، داهمني سؤال هل تقوى على تجاوز هذه اللحظات والأحداث. رافقني القلق حتى عدت إلى السكن الطلابي، فكرت في احتساء كوب قهوة، لكن كانت كل الكافيتريات ومحلات القهوة والشاي مغلقة، فمن المعتاد أن تغلق المحلات ما إن تهب رياح

المظاهرات خوفًا على ممتلكاتهم. ذهبت إلى غرفتي وأنا أشعر بخنق شديد، وتفكيري مشوش بالكامل، غموض كثيف يكتنف خيالي لا أعرف كنهه، أحس بالانزعاج والقلق، والحيرة تحاصرني بقسوة شديدة، وجدت الغرفة خالية، استلقيت دون أن أستبدل ملابسي، شعرت بنعاس وما إن أغمضت عيني إلا وكانت صورة تلك الفتاة حاضرة ومتوهجة في عقلي، أراها تقف أمامي بجسد ممشوق كزهرة تفتحت قبل أوانها.. تدافعت حشود من الأسئلة نحو ذهني، هل تستطيع هذه الفتاة أن تتجاوز هذه الحادثة؟ حاولت أن أطرد هذه الأسئلة المتواردة، لكن لم أستطع.. هل سألتقي بها مرة أخرى؟ نبع صوت قوي في زاوية سحيقة من عقلي.. حتمًا ستلتقي بها طالما تدرس معك في كلية واحدة ومستوى واحد أيضًا. بعث الصوت الأخير طمأنينة في قلبي، أراحني بعض الشيء، رفعت قدمي على الطاولة التي تأخذ حيزًا كبيرًا من الغرفة، كنا نستذكر ونضع كتبنا فيها، أخذتُ أستعيد ما حدث، تهتُ في عالم وردي لا متناهي، راودتني خيالات كثيرة كفيلة بأن تجعل قلبي ينشرح، قبل أن يدخل كوجاك دون تحية وبملامح حادة زامًا شفتيه، وهو في بئر عميق من الكآبة، يبدو عليه الإرهاق الشديد فهو من النوع الذي لا يهدأ، قل ما تجده مستقرًا في مكان واحد، يجوب مجمعات الجامعة طوال اليوم، يتنقل ما بين المجمع الطبي والسنتر والشمبات والتربية، يلتقي رفقاءه الذين يشاطرونه الفكر والقضية، يحضر معظم الفعاليات السياسية وأركان النقاش، يشارك في النقاش بكل جرأة متى ما سنحت له الفرصة ثم يعود في الليل متعبًا لا

يشتهي سوى النوم. كنت أتعمد أحيانًا إزعاجه حينما أرى النعاس في عينيه، يقول لي حينها في تساؤل وغضب:

• الإنسان في هذا الوطن لا يستطيع أن يأخذ راحته حتى في سريره؟

أرد له قائلًا:

• ألا تعلم أن الدنيا دار للشقاء والآخرة هي دار الراحة لمن اتقى كما يقول رجال الدين؟

يشتاط غضبًا ويقول:

• فلتذهب أنت ورجال الدين إلى أقرب سلة قمامة.

كانت هذه الكلمات الزاجرة كفيلة بأن تجعلني أدعه في حاله لكي ينام. حينما دخل نظر بعينين لا ترمشان إلى قدمي التي أضعها على الطاولة، أمرني بصوت حاسم أن أنزلها، ففعلت بصمت، خوفًا من لعناته التي يمطرها حينما يكون مزاجه ليس على ما يرام. بعد ذلك لم ينبس أحد منا بكلمة واحدة للآخر، ساد الصمت ونحن نتبادل النظرات كمحاربون أعلنوا وقف إطلاق النار فيما بينهم. رحت أفكر في المقولة التي خطها مصعب الصادق في جدران الغرفة بلون أحمر، والمقولة للخاتم عدلان «عشت حياتي كلها أحارب الخرافة وأنشر الاستنارة، ولو تبقى من عمري يومان أو ساعتان أو دقيقتان وأنا قادر لنشرت فيها الاستنارة»، كان جدار الغرفة مفكرة يسجل فيها مصعب أفكاره، يكتب عبارات مناهضة ومحتجة، وهذا مرض يصيب معظم السياسيين، يكتبون في الجدران على الرغم من اللوحات الإرشادية التي تستعطفهم وترجاهم

بعدم اللصق أو كتابة في الحائط، مع ذلك لا يكترثون، يدونون في أي مكان بفوضوية، ولم تنجح الحملات التي تقوم بها جمعية البيئة بين الفينة والأخرى في إقناعهم على تعديل سلوكهم تجاه بيئتهم الجامعية. خلع كوجاك ملابسه ولبس سروالًا قصيرًا وفنيلة رياضية، انتبهت لشيء ما، لأول مرة تثير انتباهي الخرائط المرتسمة في ظهره فكان ظهره عبارة عن عاهة لإصابة وجروح قديمة ملتئمة، رأيتها كثيرًا ولكنها لم تثر اهتمامي كما اليوم، أخذت أتأمل هذه العاهة بفضول قبل أن أساله عنها.

قال بعد أن رمقني طويلًا:

هذه العاهة تذكرني بأستاذ لعين يدعي المنزول، مدير لمدرسة الأساس التي درست فيها، كان ممتلئ الجسم، مفتول العضلات، ذو شارب كث، أبيض اللون حينما تقارنه بلوني، لكنه ذو شعر أجعد، كان يمنعنا من التحدث بغير اللغة العربية في المدرسة بحجة أن الرطانة تخرب ألسنتنا، ولكن كنت أتمرد دائمًا وأرطن حتى في حصة اللغة العربية، وهذا ما جعلني أتعرض للضرب المبرح كل يوم لعدم طاعة أمره، وقد استدعى والدي مرات كثيرة ليبلغه عن تعنتي، لكنه يكتفي بالقول لوالدي أنني مشاغب وفوضوي ولا أؤدي واجباتي الدراسية، ولم يتجرأ يومًا بقول الحقيقة لوالدي - أي أنني أتحدث بلغة أمي في الصف - بعد أن دخلت الجامعة اكتشفت أن لهذا الأمر أبعادًا أيدلوجية بعيدة المدى وليست له صلة بالتربية والتعليم، وأن لمنزول أجندة يريد تنفيذها وهي إعادة إنتاجنا وفق قالب الآخر، وكنا نحن التلاميذ أدوات لتنفيذ أجندته البغيضة التي

تقضي على هويتنا وتجعلنا نتماهي مع ثقافة الآخر المختلف عنا تمامًا، حتى يأتي يوم ولا أجد من يرطن معي.

انتبه كوجاك فجأة لشيء وأخذ يبتسم وقال:

انظر حتى أنا لا أسلم من الشرك الذي وضعنا فيه، حتى لغتي أسميها رطانة، إن تسمية اللغات بالرطانات هي تقليل لشأنها واستحقار للذين يتحدثون بها، فكلما تحدث بها قوم فهي لغة وليست رطانة. على العموم لم أكره أحدا في حياتي بمثلما كرهت هذا الأستاذ اللعين، فعلى الرغم من أنه تم تعيينه في السلك التعليمي قبل سبع سنوات فقط، إلا أنه تسلق سريعًا وأصبح مديرًا للمدرسة لأنه من أعضاء الحزب الحاكم، كنت أتمنى أن ينتقم منه الزمن، كم فرحت بالحادثة التي ألمت به حينما اكتشف بأن ابنته حملت سفاحًا، فكان لديه بنت يحبها ويفتخر بها وبنجابتها وذكائها، حملت سفاحًا من أحد أبناء الأعيان في المنطقة، كم رقصت في ذلك اليوم حينما انهار مغشيًا عليه بعد أن وصله نبأ حمل بنته، زاره كل زملائي حينما أدخل المستشفى إلا أنا لم أزره. بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة تم نقله إلى مدرسة أخرى في المنطقة الشمالية، سخرت من الذين ذرفوا الدموع حزنًا على فراقه، بل أعتبر اليوم الذي وصل فيه خطاب نقله يوما جميلا من الأيام السعيدة التي أعدها في حياتي.

كان كوجاك طويل القامة، أسود اللون، أفطس الأنف، ذا شفتين ضخمتين وشعر مجعد. وكان أيضًا سريع الغضب، وسريع العفو، ما أسهل أن تغضبه لكن الأسهل من ذلك مغفرته. بمثلما يثور سريعا كذلك

يخمد سريعًا. منذ أن التقيت به أول مرة تلمست فيه الروح الثورية، فكان يثور على كل شيء حتى على نفسه، يتحدث كثيرًا عن بطولات أجداده وثقافتهم، وكان يتحدث بلغته المحلية في كثير من الأحيان عندما يتصل به أحد أو يزوره أحد من أقربائه، يتكلم دون أن يلتفت لمن حوله، وهذا ما يثير حفيظة مصعب الصادق ويتهمه بالنميمة. كان كوجاك يجامل في أي شيء إلا في كيس تمباكه، يدمن العماري إدمانًا لا مثيل له، فسفته لا تفارق شفته أبدًا حتى وهو نائم، عندما يفقد كيسه تقوم حرب كونية، فكنا إذا أردنا إثارة بركان غضبه الخامد نقوم بإخفاء كيس تمباكه الذي يعتني به أكثر من نفسه. لكوجاك أسئلة تحرج ثوابتي، كم شعرت باشمئزاز حينما باغتني بسؤال استفز ثوابتي الصماء «لماذا لم يبعث الله نبيًا أو لم يرسل رسولًا هاديًا للأمم في إفريقيا جنوب الصحراء؟». نظرتُ إليه مذهولًا، في الحقيقة ليست لدي إجابة كافية تبرئ الثوابت التي أحملها. ابتسم ابتسامة ماكرة أعلنت عن انتصاره في هذه المعركة، وقال: الأنبياء والرسل يُرسلون إلى أقوام تعيش في فوضى ليرشدونها ويقودونها إلى التنظيم ويهدونها إلى سواء السبيل، مثل قوم لوط، أصحاب الأيكة، الفرعون المتكبر، عاد وثمود ومجتمع الجاهلية الذين يدفنون بناتهم حيات، والأفارقة ليسوا سيئين لدرجة أنهم يحتاجون إلى نبي ينقذهم من الضلال، بل المجتمعات الإفريقية مجتمعات منظمة نظيمياً داخلياً عجيباً ، يحكم أفراد كل مجتمع قانون صارم لا يخرج منه أحد، مثل قبيلة الدينكا، فالفتاة تكون عارية كما ولدتها أمها ومع ذلك لا يلمسها أحد غير زوجها. ما

زلت أتذكر آخر كلمات قالها، إن مشروعه القادم بأن يتزوج امرأة سوداء لينجبوا أطفالًا أكثر سوادًا منهم، حتى يحافظوا على ما تبقى من السحنة السودانية المهددة بالانقراض.

تركت كوجاك وشأنه يرتب أشياءه، أعاد ترتيب ملابسه وكتبه ثم أعاد فرش سريره، أخرج تمباكه ووضع سفة تحت شفته السفلى وصاح قائلًا: «صعوط كارب برمي العقارب» وأنا أتابع هذه المسرحية الهزيلة، في تلك الأثناء دخل فؤاد عباس، يبدو عليه الاضطراب ويخيم على وجهه الحزن، أخبرنا بأن مصعب الصادق أصيب في تظاهرة اليوم وتم نقله إلى المستشفى، هرعنا إلى مستشفى الجامعة، كانت ما تزال بقايا رائحة البمبان عالقة في الهواء، تجعل المرء يكح على نحو لا إرادي، في الطريق كادت سيارة مسرعة أن تدهسني بالقرب من نفق الجامعة، فمن شدة ذهولنا قطعت الطريق دون أن أنتبه بأن الإشارة المرورية كانت خضراء، والشرطة في ذلك الوقت ترتكز بالقرب من مسجد الجامعة وأيضًا بالناحية الجنوبية لداخلية الطالبات، تأهبا لقمع أي تظاهرة ليلية محتملة يمكن أن تخرج من داخلية الطالبات تضامنًا مع المعتقلين والمصابين، كانت غرف داخلية البركس شبه معتمة لا تضيء منها إلا غرف محدودة، دلالة على أن معظم الطالبات قد غادرن سكناتهن، فدائما في مثل هذه اللحظات يلذن بأقاربهن الذين يسكنون الخرطوم، يعدن بعد أن تعود الأمور إلى طبيعتها. بحثنا في كل عنابر مستشفى الجامعة ولكن لم نجد مصعب قبل أن تخبرنا إحدى الطبيبات بأنه تم نقله إلى حوادث الخرطوم، اشتاط كوجاك غضبًا

حينما علم بأن سبب نقله عدم وجود استمارة ثمانية في مستشفي الجامعة، فكل الحالات التي تكون فيها شبهة جنائية لا يتم علاجها إلا عبر هذه الاستمارة، وبدونها ينظر الأطباء إلى المريض بلا مبالاة، لذا تنقل مثل هذه الحالات مباشرة إلى حوادث الخرطوم. قبل أن نهرع مرة أخرى إلى الحوادث، بعد مجادلة وقليل من التعنت والرجاء سمح لنا الشرطي الذي يقف في باب الحوادث بالدخول، توجهنا مباشرة إلى عنبر الحالات الطارئة، حيث يرقد مصعب، كان منهارًا تمامًا على الفراش، وملابسه ملطخة بالدم، وذراعاه ممدودتان على استقامتهما في استسلام تام، يبدو من إصابته أنه تعرض لضرب بآلة حادة. كان يرافقه شخصان من رفاقه في الحزب تبدو على أعينهم الحيرة والقلق، حينما جئنا كانوا يحملقون فيه بصمت. بعد فترة فتح مصعب عينيه ببطء وبدأ يستعيد وعيه، والجميع ينظر إليه بأعين ذليلة ووجوه عكرة. جاءت «صفاء عبدالحميد» تلك الفتاة الشرسة التي تلقب بمارغريت تاتشر، لكاريزمتها القوية، لها القول الفصل دائما في الأمور، امرأة تساوي دستة رجال كما يقول مصعب، كانت تقود التظاهرات بمفردها، خاصة بعد أن أصبحت الطالبات وقود التظاهرات، فبعد أن كثرت الاعتقالات وسط الطلاب وزج بمعظم الناشطين في السجون، تحولت الطالبات إلى ثوريات، كن يأتين إلى الجامعة ببنطال وعباءات سوداء تسمح لهن بالفر والكر دون أن تتسخ، ووجوه غبرة خالية من مستحضرات التجميل، ويهتفن بأصوات رخيمة، لكنها تحدث دويا خاصا في قلب السلطة، حينما تشتد المعركة، يتحولن

إلى كائنات شرسة مرعبة تشك في أنهن قد مارسنا الرومانسية في يوم ما. يتقدمن الصفوف الأمامية في أشرس التظاهرات، والبعض الآخر منهن يكن في خلف التظاهرة ويحملن طرحًا، ويكون الطلاب وسط الحشد، كانت خطة ذكية لإنجاح التظاهرة، فكل من يحاول من الطلاب التراجع أو الهروب يقمن بإلباسه طرحة دلالة على جبن، كان الطلاب يسيرون إلى حتفهم خوفًا من أن يخدش كبرياءهم أو رجولتهم، وبذا تنتصر التظاهرة وتتقدم إلى الأمام وتظل صامدة لفترة طويلة أمام بطش سياط العسكر وقسوة الغاز المسيل للدموع. للتظاهرات هيبتها في تلك الفترة لدرجة أن البعض يعتقد بأن الجامعة بغير تظاهرات كطبخة بلا توابل.

صفاء فتاة فاتحة اللون، فارعة القامة، ذات وجه دائري، ومؤخرة ضخمة وصدر ممتلئ، ترتدي نظارات طبية دائمًا حتى أصبحت جزءًا من ملامحها، تدرس في كلية الاقتصاد قسم الأنثروبولوجيا، كانت قد نمت بينها وبين مصعب علاقة حب، يحبها ولكنه يرفض الاعتراف بذلك، وعندما نضبطه جالسًا معها في لحظة سمو عشقي، يقول لنا بأنها مجرد صداقة وأنها لا تمثل له شيئًا سوى زميلة كغيرها من زميلاته، لكن كان يتعامل معها تعاملا خاصا ليس كبقية الفتيات، يتحول قلب ذلك السياسى الشرس أمامها إلى قلب طفل وديع، وكنا نعلم بأن الحب وحده يفعل هذه الأفاعيل، وما يؤكد شكوكنا كان يدافع عنها بشراسة عندما يتحدث خالد مصطفى عن ملابسها التي تثير اشمئزازه وأنها لا تغطي شعرها ولا تضع في رأسها الخمار، فهي دائمًا تلبس ملابس تضيق بجسدها

الفياض وترسم أهم مقاطع جسدها الممتلئ، يقول مصعب حينها إن الثوب لا يصنع العفة، وإن العباءة السوداء ليست بالضرورة أن تكون تحتها امرأة فاضلة! فكم امرأة تتظاهر بالعفة وتلبس ملابس محتشمة ولكنها تمتهن الدعارة وتقضي ليالي حمراء في الخفاء، لكن معظم الرجال سطحيون لدرجة أنهم يتمسكون بالشكل ويتركون المضمون، الأنثى عظيمة بعقلها وبفكرها لا بملابسها. في حقيقة الأمر كانت اتهامات كثيرة تثار ضد هذا النوع من الفتيات، كثيرًا ما يقال بأن لا شيء وراء ملابسهن الخارجية، يتظاهرن بعدم التأثر بالمحيط ولكن من السهل خضوعهن، كم فتاة غير محتشمة عندما تراودها تصفعك صفعة قوية أمام الملأ. يضيف مصعب، أحب الفتيات المفرطات في التبرج فهن كتاب مفتوح عندي أقرأ في صفحاتهن ما أريد، لا أؤمن بالمظاهر فالمظاهر خداعة، قبل أن يبتسم ابتسامة ساخرة ويقول: لو كان الثوب ينصع العفة لما ركعت إقبال حسين بنت إمام جامع القرية العتيق، فقد كانت تتظاهر بأنها لا تصافح أمام الناس ولكن حينما نكون بمفردنا كانت تصافحني بحضنها.

أول مرة رأيت فيها صفاء كانت في ركن النقاش، حينما كنت في أيامي الأولى في الجامعة، وفيما بعد أصبحت ألتقي بها مع مصعب الصادق، نلتقي يوما أو بعض يوم عند سلامة، أتذكر في ذلك الركن عندما عقبت على حديث ذلك السلفي الذي داخلها في موضوع النقاش وأمرها بأن تتحجب، وأن مؤخرتها الضخمة تثير الطلاب. حينها ضربت مؤخرتها بيدها اليسرى بقوة حتى أحدثت صوتا داويا وقالت وهي تشير إلى

مؤخرتها: فأما بنعمة ربك فحدث، هذه نعمة من الله فلماذا أخفيها. وأردفت قائلة بعد أن نظرت نظرة فاحصة في وجه ذلك السلفي الذي طغت في وجهه سحابة من الغضب: إذا كان شعري المسدل وغير المغطى بالخمار يثيرك فإن لحيتك الطويلة هذه أيضا تثيرني، بالتالي عليك أن تحلقها. كاد السلفي أن يفقد أعصابه من الغضب، غادر ركن النقاش يغلي كالمرجل.

أخذت صفاء تنظر إلى مصعب الصادق بعينين كئيبتين فيهما الكثير من الامتعاض والاستياء. هم الصادق بالنهوض بعد أن رآها ولكن كان عاجزًا عن الحركة تمامًا، فتخلى عن فكرة النهوض، طفق ينظر إليه الجميع بنظرات تستجلب الشفقة، وبقلوب تتمزق حيرة، جاءت الممرضة وحقنته، وأشارت إلينا بنوع من الحزم بأنه يحتاج إلى بعض الراحة وسيكون بخير وعلى الجميع المغادرة، ولكن لم يأبه أحد بكلامها، حينما رأت الممرضة تعنت الجميع، حاولت تطميننا بأن لا خطورة في حالته، لكن سيتم إبقاؤه تحت المراقبة لبعض الوقت لمتابعة الحالة، ومضت بصمت.

سأل كوجاك مصعب بوجوم:

• هل تعرف الأشخاص الذين اعتدوا عليك؟

أومأ مصعب برأسه نافيًا.

غمغم كوجاك:

• يا للأسف لو أنك حفظت ملامح أحد منهم لقضي أمرهم، هؤلاء

القوم لا يحترمون الرأي والرأي الآخر.

استدرك قائلًا:

• لماذا لم تقاوم، أو على الأقل لماذا لم تبادر بالفرار وأنت تعلم بأن هؤلاء الجماعة قساة غلاظ.

قال مصعب وهو يريح رأسه على المنضدة:

• قاومت بلا شك ولكن بدون جدوى فالكثرة غلبت الشجاعة، والموت ارحم لي من أن أولى الدبر.

سقطت من كوجاك دمعة مكتومة، كنت قبل اللحظة أظن بأن قلب كوجاك كالحجر أو أشد قسوة، وما كنت أظن بأن قلبه لين هكذا. أتذكر حينما عاد كوجاك في ذلك اليوم صلى الفجر حاضرًا ودعا الله أن يشفى مصعب وأن يعود كما كان ـ العاطفة هي نقطة ضعف الوحيدة التي نشترك فيها نحن البشر ـ لكن ما إن عاد مصعب بعد مكوثه في المستشفى ثلاثة أيام إلا وعادت الأمور إلى نصابها، عادت أبخرة دخان النقاش في الصعود مرة أخرى.

غثيان الذاكرة

سبقني مصعب الصادق إلى الجامعة بثلاث دفعات، مع ذلك حينما التحقت بالجامعة وجدته لم يتعدى العتبة الأولى من عتباتها الخمس، إن ذكاءه الحاد جعلني أشك في أمره، فقد كان يتعمد الإعادة في مستوى واحد أكثر من مرة كحال سائر السياسيين الملتزمين حزبيًا، كل من سطع نجمه في السياسة يطلب منه حزبه أن يتلكأ في دراسته، ليقضي أكبر فترة ممكنة يسمح بها قانون الجامعة ليخدم حزبه.

للصادق صوت قوي وجاذب، يجبر المرء على الاستماع إليه، فصوته الحبل الذي شدني إليه وأدخله إلى قلبي، كان ذلك في أسبوعي الأول في الجامعة، كنت حينها أسكن مع خالتي في أمبدة، قبل أن أشاركه الغرفة في السكن الطلابي، في ذلك اليوم وقعت عيناي التائهتان على مصعب الصادق - من بعيد - يلقي حديثًا جاذبًا وجمع غفير متحلق حوله مقطبي الوجوه، الجميع يتظاهر بالإصغاء أمام تساؤلاته العميقة، ويبدو مفعول حديثه قد سرى فيهم وفعل بهم ما فعل، وأوقعهم في شرك العاطفة، كان حديثه واضح الدلالة في تلك اللحظة، أرهفت السمع إليه، أخذت أذناي تلتقطان ما يقوله بدقة وأنا على مقربة من قاعة الامتحانات الكبرى، تقدمت حتى أصبت الجموع الغفيرة المنصتة، تفحصت ملامحهم فجميع

المتحلقين يحملون معتقدات نضالية رغم تباينهم، وتجرى في دمائهم روح الثورة كانت أعينهم تلمع رغبة في التغيير، قال مصعب الصادق بنبرة واضحة:

• اليوم قد نال أحد الأساتذة في جامعتنا العريقة التي يفتخر بها كل البلد، درجة دكتوراه في سنن الغسل! قبل أن يتساءل مندهشًا: ماذا تعني لنا سنن الغسل، هل يحارب فقرنا، أو يوقف الحرب ويضع حدًا للنزاع الذي طال أمده في بلادنا، أو يغير حالنا إلى الأفضل؟

أردف بنبرة انفعالية بعد أن مسح ببصره الوجوه المنصتة له:

• هذا هراء ومراء، إن مشكلتنا ليست في سنن الغسل أو الوضوء، بل تكمن في غياب الرؤية، الدرجات العلمية العليا أصبحت للأغنياء دون الفقراء، تعطى لمن يدفع فقط، كأننا في شركة ربحية وليس في مؤسسة تعليمية.

واصل بنبرات أكثر صرامة:

• كل شيء يبدو لنا واضحًا وجليًا، الإنجليز علمونا على أن نكون كتبة وصغار محاسبين ونحن ما زلنا كذلك حتى الآن. جال ببصره مرة أخرى وابتسم نصف ابتسامة كأنه تأكد سريان مفعول حديثه على الجميع، قبل أن يواصل إطلاق سهامه وقذائفه الكلامية التي تصيب القلب. إننا جئنا من الهامش لنمثل أهلنا في المركز، لذا لا بد أن نكون واعين بهذه المهمة.

جملته الأخيرة هذه جرفتني إلى وادٍ معتم بالذكريات، كانت لحظة

الوداع هي المشهد الأبرز في ذاكرتي، زغرودة والدتي تستحوذ على مساحة كبيرة من المشهد، ما زلت أسمع صداها..والدي كان صامتًا، ربما لو كان يحق للرجل أن يزغرد لكان أول المزغردين، كل الوجوه التي حضرت لتودعني مألوفة لدي، كنت أرى فيهم بوضوح المعاناة المتربصة بهم، حتى كلمات الوداع التي ألقوها على مسمعي كانت لا توحي بغير الفراغ والبؤس الذي يعاشرونه، معظم الشباب الذين يناهزونني في العمر تركوا الدراسة وذهبوا إلى سوق المدينة يعملون في أعمال شاقة يستدير منها الناس حتى مالت أكتافهم ونحلت أجسادهم، يخرجون في بواكير الصباح ثم يعودون عند المساء بأجساد أشلاء متعبة، لو أحصيتهم لوجدتهم يفوقون المائة وهذا عدد كبير مقارنة مع عدد سكان قريتنا ببيوتها المبعثرة والتي تستطيع أن تراها في ذلك الوقت من بعيد بنظرة واحدة.

غادرت ركن النقاش بعد أن رن هاتفي، تركت الجميع متظاهرًا بالإصغاء لتساؤلات مصعب الصادق، كانت المتصلة شمائل، تلك الفتاة الواسعة الحيلة، التي تعمل في تجنيد الطلاب الجدد لحزبها، تعرفت بها أو تعرفت بي ـ الأمران سيان ـ أثناء استكمال إجراءات التسجيل، حينما قدمت لي إرشادات ومساعدات أعانتني على التسجيل، قبل أن تأخذ رقم هاتفي وتعدني بالاتصال لاحقًا ..طلبت مني أن أقابلها الحين، اتفقنا على أن نلتقى عند شجرة البعشيين في نجيلة آداب.

لم تلبث برهة حتى جاءت مسرعة كما الرياح، كانت مثيرة وفاتنة، ترتدي ملابس تضيق بجسدها الفياض وتكشف الفاصل الذي يفصل

بين نهديها الممتلئين، وتجسد فخذيها الضخمين، تتدلى طرحتها فوق كتفها لتفسح المجال لشعرها الغزير لينسدل فوق كتفيها بحرية تامة، كانت تحمل في يديها كتابين إحداهما لنيلسون مانديلا »رحلتي الطويلة من أجل الحرية« والآخر ليحيى ذكريا »أفول الطغات«، بادرت بجرأة إلى حضني، شعرت بحرج شديد، لكني استسلمت لرغبتها، غصت في صدرها العظيم، سرت في جسمي رعشة لها مذاق خاص لأول مرة أشعر بها في حياتي التي تشارف العقدين في ذلك الوقت، كدت أن أفقد وعيي. غادرنا شجرة البعثين وجلسنا في «كول بوكس » عند المدخل الشرقي لكلية الآداب، بدون مقدمات أخذنا نتجاذب أطراف النقاش، في الحقيقة هي التي كانت تتحدث وأنا منصت لها تمامًا، كانت تتكلم والشعور الوطني يلتهب في أعماقها، تبدو من نبراتها متفائلة بالمستقبل. لم يطل حديثها كثيرًا حتى أخبرتني بتوجهاتها المعادية للبرجوازية، ولكن ما لم أستطع أن أفهمه والذي شوش تفكيري، أن كل ما في مظهرها يدل على أنها من عائلة برجوازية وتنعم بنعيمها، حقًا كل شيء يدل على ذلك، ساعتها الذهبية، هاتفها الباهظ، ملابسها الأنيقة التي ترسم مظهرها المميز، كل شيء فيها يجعلني أشك في مناصرتها للبلوتارية، وتفند إدعاءتها بأنها منقذة فقراء العالم.

بينما كانت تتحدث كانت عيناي تطوفان بين صدرها الممتلئ وأردافها المتكورة الداعية إلى صلاة الشبق، وهي تواصل حديثها غير عابئة لنظراتي المتفحصة لثمرة أنوثتها، تراودني بين كل تارة وأخرى خيالات مبهجة

قبل أن يعيدني حديثها إلى تخوم الواقع كل مرة.

قلت لها وأنا أتفحصها:

• لماذا تتورط فتاة جميلة في هذه اللعبة القذرة؟

أجابت بشيء من الثقة:

• الواقع هو الذي البسها هذا الثوب القذر.

أردفت بعد صمت:

• في الأساس نحن لسنا سياسيين، منا الفنان، لاعب كرة، المهندس والطبيب، كل واحد من هؤلاء مبدع في مجال ما، لكن الواقع قاتل للإبداع كما ترى، فحينما يتطابق الواقع مع الأمل سيمزقون جميعًا هذا الثوب القذر، ويذهبون ليبدعوا في مجالاتهم وتخصصاتهم.

ساد صمت لكنه ليس طويلًا سألتني بعدها:

• أليس الواقع الذي نعيشه يدعو إلى الإحباط؟

أجبت بشيء من التردد:

• أجل، هذا صحيح، لكن......

قاطعتني قبل أن أكمل جملتي، قالت بصوت نافذ الصبر يتناقض مع رقتها:

• لكن ماذا؟

قلت وكأنني أفهم في السياسة:

• ولكن...ألا ترين بأنك تبحثين عن المستحيل؟

قالت، وهي تنظر إلي بنظرات مشفقة:

• المستحيل أن يعيش المرء مكبلًا، فاقد الحرية.

ساد صمت طويل في هذه المرة كل منا ينظر إلى الآخر بنظرات ليس لها أي مغزى، ربما أدركت شمائل حينها صعوبة مهمتها، فإن الشاب الأبله الذي يجلس بجوارها، صعب إقناعه بسهولة، إنه نوع آخر من الشباب، من طينة أخرى، نار الثورة خامدة فى قلبه.

قطعتُ حبل الصمت الذي دام قليلًا، قائلًا:

• أرى بأني إنسان عاطفي لا أصلح في السياسة، فالسياسة لا تقبل العاطفة كما أعتقد.

قالت بعد قليل من التفكير:

• حسنًا، ما زال هنالك متسع من الوقت لكي تفكر في الأمر، وأننا ما زلنا في بداية الطريق، المهم أن نكون أصدقاء.

قلت موافقًا :

• حسنا، نحن أصدقاء منذ الآن.

ودعتني مسرعة ونظراتي تلاحقها حتى توارت عن أنظاري، أذهلني جمالها الذي كاد أن يجعلني أن أقع في فخها، تساءلت مرة أخرى في نفسي متعجبًا، لماذا تورط هذا الجمال في عالم السياسة القذر!

منذ ذلك الحين صرنا أصدقاء، نلتقي يومًا أو بعد يوم نتناقش في أمور شتى، وتعمقت علاقتنا أكثر، قدمت لي دعوة أن أزورها في البيت، ولكن صفاء قضت على هذا الحلم بعد أن قالت بأن هذا فخًا تريد أن توقعني فيه. كان ذلك قبيل انتخابات اتحاد الطلاب بأسبوع، في تلك الأيام

تحولت الجامعة إلى مهرجان من السياسة، أصحاب الكولينات والركانة يستقطبون الطلاب خاصة الجدد منهم، تلتقط أذنك أصوات مكبرات الصوت من مسافة بعيدة، وملأت المنشورات الجدران، كل شخص في تلك الأيام يتنفس السياسة، والأحزاب السياسة تتحالف فيما بينها لتخوض الانتخابات بقائمة موحدة ضد الحزب الحاكم. في ذلك اليوم كنت أجلس مع مصعب وصفاء عند سلامة قبل أن تأتي شمائل وأبسط لها ذراعي مرحب بها، كذلك فعل مصعب، لكن صفاء لم تستقبلها كما ينبغي، فقد استقبلتها بتحية متثاقلة تدل على أن بينهما قلة توادد، رأيت ومضات البغض التي شعت في عيون صفاء بعدما انفردت شمائل بمصعب وجلسا على بعد خطوات منا، وأخذا يتهامسان فيما بينهما، حينها بذلت صفاء جهدًا لتخفي غيظها وغيرتها ولكنها لم تستطع. يقال بأن ثلاثة أشياء لا يمكن إخفاؤها الحب والفقر والكحة لكن يصرن عند صفاء أربع وهو البغض، فإذا أحبت أحبت بصدق وإن بغضت كذلك، سألت صفاء، دون أن أفصح لها معرفتي بشمائل:

- هل تعرفينها.

قالت بوجوم:

- ماذا تقصد.

قلت:

- إن طريقة استقبالك لها تنم عن كراهية قديمة.

صمتت برهة، قبل أن تقول وهي ترمقها باستخفاف:

• من الذي لا يعرف شمائل القرشي، إنسانة حتمية تحاول إثبات وجودها بنفي الآخر كغيرها من الذين يدعون العقلانية في الجامعة.

صمتت مرة أخرى ثم أضافت باستهجان:

• عالم متناقض، يتبنون قيمًا ومثلًا ولكن أفعالهم تدل على أنه لا قيم ولا مثل لهم.

حركت في نفسي شيئًا من الفضول، قلت باهتمام:

• ومنذ متى تعرفينها؟

قالت وعينها تقطر بغضًا:

• منذ أيامي الأولى في الجامعة حينما كنت برلومًا، في ذلك الوقت كانت تعمل كادرة حنان في حزبها، تجند الطلاب، حاولت استقطابي وجري إلى التحزب ومناصرة الأفكار التي تحملها، كانت تخدعني بالصداقة، تصطحبني في كل الفعاليات التي يقيمها حزبها في المركز العام، لكنني تركتها بعد أن عرفت نواياها، كانت تخدعني بالصداقة وتستدرجني في شباكها رويدًا رويدًا حتى جاء ذلك اليوم وطلبت مني أن أوقع على إحدى الاستمارات، وكانت الاستمارة لعضوية حزبها فافترقنا منذ ذلك اليوم، تركتها بعد أن عرفت نواياها المقيتة.

صمتت صفاء قبل أن تواصل حديثها وهي لا تزال ترمق شمائل بنظرات الكره:

• كان همها أن تصل إلى القمة السياسية، تفعل كل شيء من أجل حزبها والأفكار التي تحملها، يبدو أنها الآن تريد أن توقع وثيقة تحالف

حزبها مع حزب مصعب الصادق ليخوضا الانتخابات معًا.

قلت لها:

• وما العيب في ذلك، فهي صادقة في مشروعها، تموت من أجل ما تؤمن به، وتفعل كل هذا من أجل المهمشين والفقراء.

قاطعتني معترضة وقالت بحزم:

• كيف تناصر المهمشين وقد ورثت دم البرجوازية أبًا عن جد؟ كيف تتكلم عن الفقراء وهي ترفل في نعيم البرجوازية ولم تشقَ في جحيم الفقر يومًا؟ ـ شتان بين الأيديولوجية والواقع ـ أتعرف من هو والدها؟ أجابت دون أن تنتظر إجابتي: والدها صاحب مصنع ضخم، يعمل في مصنعه سبعمائة عامل، يربح على رأس كل ساعة مليارات وبالمقابل يعطي العمال ملاليم كأجر نهاية الشهر، لا توفر لهم أدنى مستحقات العيش، فلو كانت تؤمن بالاشتراكية كما تدعي لطالبت والدها أولًا بمراعاة حقوق العمال! وحتى الاشتراكية التي تنادي بها فشلت في تحقيق أدني تطلعات الجماهير ولم تنتج في العالم إلا الدكتاتوريين، انظر إلى سائر الدول الاشتراكية ستجد على رأس كل واحد منها يجثم على أحلام الشعب طاغوت.

تذكرت ما قاله كوجاك ذات مرة أن بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أصبح العالم كله نظاما رأسماليا بدرجة أو بأخرى، كل الذين ينادون بالاشتراكية هم مجرد سلف. في حقيقة الأمر لم تستهوني نظرياتها يومًا بقدر ما أغواني جمالها، هكذا قلت لصفاء قبل أن يجرني هذا الاعتراف

إلى وادٍ من اعترافات أخرى، فقد اعترفت لها بأني أعرفها منذ فترة، وأنها دعتني أن أزورها في الأسبوع القادم في البيت، هنا فاض الكيل، وحسمت صفاء الأمر وقالت:

• إنها تريد أن توقعك في الشرك، فشمائل سياسية مؤمنة بأفكارها كأنها وحي أنزل من السماء، حينما تكتشف بأن ليس لأفكارها موطئ في قلبك تلجأ إلى الجنس للإيقاع بك.

في ذلك الوقت كانت المجندات اللائي يطلق عليهن كادرات الحنان، حينما لا يفلحن في إقناع الهدف بالأفكار، ويفشلن عبر أساليب التعبئة والإقناع في تحقيق ذلك، تقفز في أذهانهن فكرة شيطانية، يفكرن في استخدام إمكانياتهن الأنثوية عسى أن يستطعن تغيير مجرى تفكيره، بالأحرى يلجأن إلى الجنس والإغراء أو يخدعن ضحاياهن بالحب، فهذا أنجع السبل وأقصر الطرق خاصة مع الطلاب المراهقين الذين تربوا على الصرامة والكبت. فالفشل غير موجود في سننهن، أحزابهن تدربهن على ذلك، لا بد أن ينجحن في مسعاهن، وأن يصبن الهدف المنشود مقابل كل شيء، كانت شمائل ماهرة في عزف هذا الوتر الذي يفقد الطلاب رشدهم ويحولهم إلى حيوانات ناهمة طاغية، فالجنس الوسيلة الأنجح لغسل الدماغ والإيقاع بالفريسة بعد أن تفشل وسيلة الإقناع والمنطق.

عدت أنا وكوجاك إلى السكن الطلابي على مشارف منتصف الليل بعد أن تركنا مصعب في المستشفى ومعه أحد الرفاق، على أن نعود إلى المستشفي في الصباح، في تلك الليلة لم أستطع أن أغمض جفنًا، كانت

أصعب ليلة في حياتي، اجتاح القلق قلبي بالكامل، كنت أفكر بعمق وخوف، والمشاهد تتوارد على خاطري بصورة جنونية وتتراكم في ذهني. شعرت بالنعاس ولكن ليست لدي رغبة في النوم، جلست في كرسي وفتحت النافذة، أخذت أتأمل المدينة كانت في سبات عميق، كان شارع الجمهورية وشارع الجامعة اللذان يحيطان بالسكن الطلابي مشلولي الحركة، تستطيع أن ترى مسافة بعيدة من الأضواء المتلألئة في جنبات الشارع، الخرطوم أجمل ما تكون في الليل، يكسوها هدوء تام، تتوقف الحركة منذ العاشرة مساءً، الجميع يغطون في نوم عميق، لا أندية ليلية..لا سينما..لا مسرح، كل شيء معطل تمامًا ، الناس يفكرون في قوت يومهم، يخرجون قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ثم يعودون بعد أن تكتسي الأرض بالظلام، منهكي الأجساد لا يفكرون في شيء غير أن يأخذوا قسطًا من الراحة ليستيقظوا غدًا باكرًا ليبدأوا معركة جديدة من أجل كسب لقمة العيش، فالبقاء لمن يملك قوت يومه فقط.. يقال بأن الرجل في الخرطوم لا يعاشر زوجته إلا مرة واحدة في الأسبوع نسبة للجهد المضني الذي يبذله طوال النهار في العمل فيعود منهارًا بالكامل لا يشتهي سوى النوم. نظرت إلى الوقت كان يتعدي الثانية صباحًا، عدت إلى سريري أحاول استعطاف النوم، لكنه أبى أن يستجيب لنداءاتي، أخذت في هذه المرة أتأمل المروحة المعلقة في سقف الغرفة وهي تدور، أحسست بأن حياتي تدور مثلها تمامًا، لكن في اتجاه عقارب اليأس والقلق، فكرت في تحطيمها أو إغلاقها، لكن تراجعت حينما تذكرت سخونة الطقس، أو

ربما خوفًا من الشتائم التي ستصيبني لا محالة من كوجاك الغارق في النوم آنذاك. أخذت أفكر في ما جرى، وأسترجع شريط يوم أمس العاصف، كانت الفتاة حاضرة في كل مشهد من المشاهد، أحاول أن أتخيل ملامحها التي لم أعرها أي اهتمام وقتذاك اللحظات العاصفة، تبدو لي صورتها مشوشة بعض الشيء، حاولت جلب صورتها وإعادة رسمها من جديد لتبدو مكتملة، بدت لي ذات ملامح استوائية لكن حياة المدينة جعلتها أكثر رقة ولونها أكثر نصوعًا ..تساءلت لماذا أهتم بها إلى هذا الحد، هل تلك اللحظات القليلة العابرة كفيلة بأن تجعل الحب يطرق قلبي، لم أكن واثقًا تمامًا من مشاعري، خليط شيء لم أستطع تفسيره، حاولت طرد فكرة الحب، لم نلتقِ إلا هذه اللحظة العابرة بفعل الأحداث، لولاها لما أعرتها اهتمامًا، حاولت تجفيف بذور مشاعري قبل أن تنبت أشواقًا، فللشوق مخالب إن غرزت في قلب المرء تدمع لكن الشوق أردى كبريائي قتيلًا، أجمل الحب ذاك الذي يأتي في لحظة غير متوقعة، حاولت إقناع نفسي بأنه ليس حبًا بل مجرد إعجاب سويعات سيتلاشي، كل ما بيننا مجرد فقاع سرعان ما تغدو لا شيء.

في الصباح كنت متلهفًا لرؤية ما صار عليه الحال بعد أحداث الأمس التي اجتاحت الجامعة، وفي الحقيقة كنت مفعمًا بالأمل بأن ألتقي مرة أخرى بفتاة الأمس التي لا أعرف اسمها، دخلت الحمام مسرعًا حتى أتفادى زحمة الساعة السابعة موعد استيقاظ معظم الطلاب، حيث تكون جميع الحمامات مشغولة، فالحمام في هذا التوقيت مشقة، لا تستطيع أن

تأخذ راحتك فيه كما تريد، ما إن تدخل إلا وقد قرع أحدهم لك الباب ينبئك بأن تسرع. ما إن دخلت الجامعة حتى وجدت الأمور قد عادت إلى مسارها الطبيعي وكل شيء قد أعيد تنظيمه، كأن شيئًا لم يحدث، والحرب الكونية التي دارت بالأمس كانت مجرد كابوس، فقد قام عمال النظافة بتنظيف المكان وما خلفته الأحداث، جمعوا الحجارة والزجاج المتناثر من قارعة شارع الجامعة والشوارع الأخرى التي تحيط بالجامعة، لكن ما زالت سيارات الشرطة ترابط بجوار الجامعة خوفًا من تجدد التظاهرات.

مررت بمكان سلامة، كان يبدو ساكنًا في الصباح كما العادة، أخذت أبحث عن فتاتي المنتظرة في كل الأماكن المحتملة لكن بلا جدوى، قبل أن أجلس في أحد البينشات منهارًا تمامًا من اليأس، وكلي أمل بأن تأتي في أي لحظة، لكن كلما تمر الثواني تتمدد خيبتي، كلما أرى فتاة قادمة أظن أنها فتاة الأمس، أشتم منها رائحتها الفواحة، لم تلتقطها عيني حتى انتصف النهار غادرت حينها الجامعة ذاهبًا إلى المستشفي لأطمئن على مصعب الصادق.

انتعاش الذاكرة

بدأت صورة عبير تذبل في ذاكرتي، حتى جاء ذلك اليوم وانتعشت صورتها الذابلة من جديد، كان الطقس متأنقًا بكامل أناقته، السماء زرقاء صافية، نسمة رقيقة تهب من الشمال وتجعل الروح تتدثر بثوب السكينة والانتعاش. حينما دخلت الجامعة كانت الساعة تشير إلى التاسعة، أي تبقت للمحاضرة الأولى ساعة، جلست في أحد المقاعد في سيركل الآداب، وضعت ذراعي تحت رأسي واتكأت عليها، وما هي إلا هنيهة حتى ذهبتُ بعيدًا بخيالي، أخذت أتأمل الكون بشغف وجودي لا حدود له، رأيتُ الأشياء تبدو في حالة من التيه، تضاد في كل شيء، البشر كلهم تائهون ضائعون يحدثون ضجيجًا بلا فائدة، وجوه ضاحكة وأخرى عابسة، عالم مليء بالمعاناة ولكن من رحم هذه المعاناة يولد الأمل، وتناسق الحياة ما هي إلا لوحة فلكلورية تجمع بين أشياء متناقضة. عدت بخيالي الدوار إلى تخوم الواقع حينما استوت أمامي بجسم رشيق، فتاة في مثل سني بالتحديد، لا يشك أحد في نعومتها، غارقة في سمرة زاهية، فارعة الطول، شعرها منسدل إلى الأسفل يلامس كتفيها المعتدلتين، يفوح منها شذى عطر باريسي ناعم. لملمت جلباب ذاكرتي، تذكرت بأنها فتاة ذلك اليوم العاصف، ما زلت أتذكر كيف تهاوت على كتفي، وكم كانت تتنفس بصعوبة بالغة، وترتعش من رأسها إلى أسفل قدميها. ذابت يديها في

يدي المرتعشة ثم أخذت موقعها بجواري قبل أن أدعوها إلى ذلك.

قلت لها دون مقدمة وأنا أتأمل جمالها الأخاذ:

- لم أكن أتصور أنكِ جميلة هكذا، بالأمس حالك يحنن واليوم يجنن.

ابتسمت ابتسامة ساحرة وقالت:

- هذا دلالة على أنك أيضًا جميل، فالجميل من يرى الأشياء الجميلة.

حاولت صك جملة مناسبة لأرد لها لكن لم أستطع، أحسست كأني ولدت توًا وعقلي صفحة بيضاء، أخذت أتأمل شامة فوق خدها الأيسر، أردفت قائلة:

- منذ أن افترقنا في تلك اللحظات لم أتِ إلى الجامعة إلا اليوم، في الحقيقة كنت لا أشعر برغبة في حضور المحاضرات منذ تلك الحادثة، كلما أرتدي ملابسي كي آتي إلى الجامعة إلا وتراجعت، أحس بأن أحداث ذلك اليوم ستتكرر مرة أخرى.

كان لكلماتها موسيقى تعيد ترتيب كل الأشياء المبعثرة في داخلي، وتلم شمل السعادة في قلبي. ساد صمت قبل أن تضيف مرة أخرى:

منذ الصباح كنت أنتظر في القاعة 102 لعلك تأتي، وحينما لم تأتِ خرجت أبحث عنك حتى وجدتك هنا.

كدت أن أعترف لها وأقول بأني أيضًا بحثت عنها في كل الأماكن المحتملة حتى يئست، لكن مرة أخرى قد طارت كل الكلمات من رأسي.

قالت بنبرة تكشف عن أنوثة هائجة وهي تنظر إلى عيني بجرأة لم أعهدها:

- أشكرك على ما فعلته معي بالأمس.

أردفت قائلة بعد صمت:

• اسمي عبير بدر الدين.

تأملتها مرة أخرى واعتدلت في جلستي قبل أن تخرج الكلمات من فمي ببطء شديد:

• وأنا محمود سليمان.

نظرت إلى ساعتها وأشارت بأن الساعة العاشرة قد زادت بعشر دقائق، تحركنا مسرعين نحو القاعة قبل أن يغلق المحاضر الباب خلفه، بعد نهاية المحاضرة وقبل أن تغادر الجامعة لزيارة أحد أقربائها في مستشفى رويال كير، أخذت هاتفي وطلبت مني أن نلتقي غدًا خارج الجامعة، فغدًا يكون خاليًا من المحاضرات، ترددت في بداية الأمر، فالأمر يحتاج إلى التفكير، فهذه أول مرة تطلب مني حسناء جميلة مثلها أن أرافقها خارج الجامعة، فكرت مليًا قبل أن أقرر، طال التفكير، أمسكت بيدي، ترددت مرة أخرى، قالت:

• إذا لم تفعل سأكون غاضبة منك.

قلت:

• كل شيء إلا غضبكِ.

لم يأتِ يوم غد مسرعًا، كانت ساعاته تتلكأ دقائقها كأنها تريد أن تفسد اللقاء، كان الليل طويلًا، ولكن لا بد لليل أن ينجلي. كنت أول المستيقظين في السكن الطلابي، بالأحرى لم أنم إلا قليلًا، ومع ذلك لا أشعر بالنعاس، عقلي مستيقظ تمامًا.

هل يليق هذا القميص بهذا اللقاء الذي انتظرته كثيرًا؟

هكذا حدثت نفسي وأنا أرتدي ذاك القميص الذي يبدو كغابة كثيفة على نهر الكنغو، ابتسمت نصف ابتسامة حينما نظرت إلى صورتي في المرآة التي تحتل جزءًا من حائط الغرفة، قلت: يا لهول، أبدوا كمهرج في شوارع أقدوقو. خلعت هذا القميص وبدلته بآخر، ولمعتُ حذائي جيدًا ، وتأكدت من هندامي أكثر من مرة.

أمسكت الهاتف بيدين مرتجفتين لأقول لعبير بأني جاهز للقاء، لكن حينما نظرت إلى الساعة وجدت الوقت ما زال مبكرًا ، كانت التاسعة صباحًا، تبقي ساعتان لموعد اللقاء، ما زال هنالك وقت لترتيب أفكاري، لا بد أن أضع هامش زمن، ربما أجد زحمة في المواصلات، ربما أجد الشارع مغلقا، فشوارعنا لعينة، صممها مهندسون أغبياء، ما إن تتعطل سيارة فيها حتي وتتوقف الحركة تماما. جلست في كرسي وأفكاري باسطة ذراعيها في لج التمني السرمدي، أخذت أرسم شكل اللقاء، تهاطلت الأسئلة على رأسي، عندما نلتقي هل سأحضنها أو سأكتفي بمصافحتها باليد فقط؟ حسمت الأمر دون عناء، سأترك ذلك لتلك اللحظة، وسأجعل الأشياء تجرى بتلقائية. نظرت إلى الساعة مرة أخرى والوقت ما زال مبكرًا ، شعرت برغبة التدخين، لكن لا أملك من أدوات التدخين إلا شفتي، بالأحرى أنا لا أدخن. سرحت بخيالي بعيدًا لم أعد إلى الواقع إلا حينما رن هاتفي، أخبرتني بأنها تنتظرني عند نفق الجامعة، خرجت وأنا أحس بسعادة غامرة، والطقس منسجم مع الحالة التي أشعر بها، كان الجو لطيفًا والشمس شبه غائمة. ما إن رأتني حتى فتحت ذراعيها لعناق حار، ذهبنا إلى مطعم يقع في أحد الشوارع الفصيحة في حي

العمارات، يبدو كقصر ملوكي، يتكون من ثلاثة طوابق، هادئ بعض الشيء، تعمل فيه نادلات أنيقات يرتدين زيًا موحدًا، عبرنا البوابة دون عناء، فهو من النوع الذي يفتح ما إن يقترب منه جسم بشري، كانت بالداخل تنويعة لونية متآلفة، المقاعد بلون عنابي وفي أشكال هندسية مختلفة، وأرضية يغطيها سراميك بلون أبيض متدرج إلى البنفسجي، والجدران مطلية بلون وردي وتعززها الإضاءة الخافتة لتخلق أجواء رومانسية، الطابق الأرضي عبارة عن مطبخ كبير إلا جزء صغير منه خصص لطاولتين وفي كل طاولة كرسيان ينتظر فيهما الزبائن أصحاب الطلبات السريعة إلى حين تجهيز طلباتهم، أما الطابق الثاني كان عبارة عن صالة كبيرة يشبه صالات عرض الرسوم التشكيلية، يزين جدرانه لوحات بناها خيال خصب، البعض من هذه اللوحات تجسد مدن قديمة بديعة المعمار، وبعضها الآخر يصور الطبيعة في كامل بهائها، صعدنا إلى الطابق الثالث وأنا أدير عيني في أرجاء المكان متفحصًا بدهشة، كان معظم الطاولات مليئة بالزبائن في هذا الطابق. كدتُ أن أخرج هاربًا حينما رأيت شعري الكث في المرآة الكبيرة المعلقة على الجدران، شعرت بحرج بالغ، فشعري ينمو سريعًا كأنني أضيف إليه الأسمدة التي تضاف للمحصول الزراعي حتي يتعجل بالنمو، كنت دائما ما أقول مازحًا إني لم أرث من والدي غير هذا الشعر المزعج الذي ينمو بسرعة جنونية. في الحقيقة لولا عبير ممسكة يدي لوليت فرارًا ، فالمكان لا يشبهني هكذا بدا لي. جلسنا على طاولة في ركن يتيح لنا إمكانية رؤية كل شيء بدقة، أخذت أنظر عبر النافذة الزجاجية إلى مباني حي العمارات العظيم، فلو كنت في مكاني حتمًا

ستغزوك أفكار وتساؤلات مشروعة وتتصور أنك في مدينة غير الخرطوم، ولو رأيت الجالسين في المطعم لجزمت بأنهم لا يشبهونني في شيء سوى في السمرة، على الرغم من أن سمرتهم أرق من سمرتي، وتلاحظ أن كثيرًا من الفتيات الجالسات تنكرن للسمرة بمساحيق تفتيح البشرة. شعرت بأني مثل شجرة اللعوت نبتت في بستان أميري يجب استئصالها من جذورها، عرفت كيف تخلق الفوارق الاقتصادية الفجوة بين مواطنين في قطر واحد لهم نفس الحقوق والواجبات، قال مصعب الصادق ذات مرة واصفًا الخرطوم: إنها مدينة ترتدي جلباب التناقض، تحتضن بيوت الفقراء غير مستورة العورات وتعيش فيها أرواح مهدورة وأجساد مجهضة، وفي الجانب الآخر فلل ملوكية أصحابها متخمون وهم الذين يقررون مصير هؤلاء الفقراء البائسين. كنت شارد الذهن لدرجة أني لم أنتبه لنادلة حينما مدت لي قائمة الطعام، أخذت عبير القائمة ووضعتها جانبًا واقترحت أن نأكل طبق البيتزا بالخضار وليمونا بالنعناع، وافقت على الفور دون أن أفكر وأنا ساهم في اللاشيء، حاولت لملمت جلباب أفكاري ولكن لم أستطع، حدقت مرة أخرى في الصورة المنعكسة في المرآة المواجهة لي والقابعة في الجدران، أخذت أفرك يدي بتوتر فقد كنت غارقًا في الخجل لدرجة أن عضلات وجهي تتشنج على نحو لا إرادي وأنا أنظر إلى ذلك الشكل المتجسد في المرآة، كان شخصا قرويا أسمر اللون، مائلا إلى الطول، نحيفا بعض الشيء، كث الشعر، يرتدي بنطال أسود وفنيلة رمادية ذات أكمام قصيرة، وله وجه شاحب وشفة جافة... هذا أنا بكل تأكيد.

انتبهت إلى عبير وهي تنظر إلي بتركيز وتبتسم ابتسامة متوهجة دون أن تقول شيئًا، بادلتها بابتسامة خجولة فورًا، مالت إلى الوراء في الكرسي، أراحت جسدها بالكامل، أطبقت يديها مع بعضها البعض كتلميذ ينصت لمعلمه وهي تنظر إليّ، أخذتُ نفسًا عميقًا لأطرد الخجل الذي يتملكني، ولكن لم أفلح، عدت إلى التحديق مرة أخرى إلى المرآة، رأيت فتاة ذات وجه أسمر ناعم مائل إلى الاستدارة، وشعر منسدل إلى أسفل كتفيها، ذات عينين واسعتين يعوم في وسطهما سواد جميل، ترتدي فستانًا بنفسجيًا وتضع فوقه جاكت أبيض، وشامة في خدها الأيسر، إنها عبير بكامل تفاصيلها، قلت في نفسي، هل تعلم هذه الفتاة كم تبدو جميلة. ابتسمت عبير نصف ابتسامة أعادتني من شرودي كأنها قرأت ما يجول في ذهني.

مسحت حبات العرق التي بدأت تتساقط من جسمي رغم برودة المكان، قلت:

• في الحقيقة هذه أول مرة أجلس في مثل هذا المكان وأكون بصحبة فتاة جميلة مثلك.

قالت بدلال:

• لا عليك، ستتعود كثيرًا على هذه الأمكنة بعد الآن.

أمسكت يدي وضغطت عليها برفق، نظرت إليّ نظرة حنونة، أردفت قائلة:

• أشعر بالامتنان لك، فما فعلته معي في ذلك اليوم موقف كبير، حدثت أبي وأمي عنك، قالوا سيكونون سعداء بأن يروك.

حينما كانت تضغط على يدي، اعتراني شعور عجيب، شعور مزيج بين الوجود والعدم، ما أستطيع أن أقوله إنني تحررت في تلك اللحظة من إيقاع الزمن، شعرت بأني أسبح في فضاء سحيق وأنني أرحل كسحابة كونية عابرة للمجرات البعيدة. قبل أن تأتي الفتاة النادلة وتنحني لتضع الطعام على الطاولة برفق وهي تبتسم ابتسامة مصطنعة.

قالت عبير:

«إذا حضر الطعام بطل الكلام».

أمسكت الشوكة بيد راجفة، ما إن وضعت لقمة في فمي حتى شعرت بغصة تسد حلقي وتمنع اللقمة من النزول إلى جوفي، طغي طيف كوجاك ومصعب وفؤاد عباس في مخيلتي، أحسست بأني أخونهم، شعرت بالذنب، فمنذ أن تعرفت بهم وسكنت معهم، لم يحدث أن تناول أحد منا الإفطار دون الآخر، كنا ما إن نستيقظ إلا ونذهب ونتناول الإفطار ونشرب الشاي ثم يذهب كل واحد منا إلى شأنه. كنت آخذ بعضًا من الكيك الشهي والحلويات التي تأتيني بها عبير إليهم، يقول عباس مازحًا:

- الحب مقابل الغذاء.

حاولت عبير أن تستفسر عن سبب تغيري المفاجئ،

أجبت:

- لا شيء.

رمقتني بنظرة كشفت عن عورات كذبي، قالت:

- من السيئ أن تبدأ العلاقة بالكذب.

قلت محاولًا إعادة ترميم جسر الثقة الآيل للانهيار:

في الحقيقة متوتر بعض الشيء، فكما قلت لك هذه أول مرة آتي إلى مثل هذا المكان، أحس بأنني كفقير متطفل على موائد الأثرياء.

ابتسمت ابتسامة مشرقة، فعبير غالبًا ما تكتفي بالابتسامة ولا تقحم نفسها في نقاش لا طائل منه. اقتربت مني أكثر حتى أخذ يلامس جسمها جسمي، قالت وهي تنظر إلى بعيني تائهتين حائرتين:

• لديك عندي دين، عليّ الوفاء به طول حياتي.

لم أجد ردًا أبلغ من ابتسامة، ثم ساد مرة أخرى صمت وقد غرق كل منا في ذاته، قفز إلى مخيلتي سؤال حائر وسألت نفسي، لماذا لم تسألني من أين أنا، ومن أي قبيلة كما يفعل الناس جمعيًا في بداية العلاقة، فعادة الناس يبدأون العلاقات بالسؤال عن القبيلة والأصل قبل كل شيء، فمرض القبيلة متفشي حتى في وسط هذا المجتمع المتحضر، فالقبيلة مدخل لأي علاقة جديدة، خاصة في العلاقات العاطفية، فإذا كنت من إثنية أقرب للطرف الآخر نمت العلاقة وازدهرت، أو ماتت قبل أن تولد إذا كانت قبائلكم تتباعد وتتنافر، لذا اندهشت حينما لم تسألني من أي قبيلة أنا! كأنها تعرف كل شيء عن أصلي ونسبي. مر الزمن بسرعة مهولة، ودعنا بعضنا بعد أن أخذت تلوح الشمس بالوداع، عدت إلى السكن الطلابي والسعادة ترافقني.

منذ ذلك اليوم، بدأت أشعر نحو عبير بمشاعر لا تشوبها شائبة من الزيف، أخذ قلبي يهفو نحوها دون شروط. خالجتني مشاعر شتي، حاولت أن أجد تعريفا مناسبا للحب، لكن كل التعريفات تبدو ناقصة.. الحب

رياح جنوبية عاتية، تحمل في طياتها نسمة باردة، لكنها تقتلع الأشجار من جذورها... الحب قنبلة ذكية تصيب الهدف بدقة دون أن تخلف ضحايا غير مرغوب فيهم.. الحب ذلك الشيء الذي يجمع بين اللذة والألم، الفرح والحزن، بين التيه وبيان الهدف. الحب موسيقى تأْسُر القلوب وتجعل عصافير السعادة تحلق في حياة الإنسان. دخلت عبير حياتي دون استئذان، وهل الحب يستأذن؟ الحب لا يجيد أدب الاستئذان، يدخل القلب من أي باب شاء، الحب مثل ميلاد الإنسان، كلاهما يتم دون إرادة منا، إننا لا نختار حين نحب وحين نولد، عند الحب يتغير التاريخ وتتبدل الجغرافيا ويصبح كل شيء ذا جدوى.

عبير، فتاة لها رائحة ونكهة مختلفة، تسرق بؤسك، تجعلك تقيم مراسم لوداع عتمتك إلى الأبد، عبر ابتسامتها المخملية تغادر مُدن الأحزان المتربصة بك، تنسى أغانيك الحزينة، وتبدو كل الأشياء من حولك متوهجة والسعادة متغلغلة في مساماتك، تتحول أشياؤك القاتمة والغامضة إلى أشياء ذات جدوى. دخلت حياتي دون سابق إنذار، من حيث لم أشعر.

أصبحت عبير كل شيء في حياتي، أدخل الجامعة أجدها في انتظاري، ندخل المحاضرة ونحن نرافق بعضنا البعض، ونخرج منها كذلك، كنا في البداية نتبادل حوارات قصيرة قبل أن تتحول إلى سيل لا ينتهي من الحديث. للحب رهبة من البداية، لكن سرعان ما تتحول الرهبة إلى رغبة جامحة. كل يوم يتعزز موقعها في قلبي، أحيانًا نلتقي خارج الجامعة في حدائق اليونسكو أو في شارع النيل أو في أحد المطاعم في حي العمارات، كنا نفعل ذلك دون أن نحدد شكل العلاقة التي بيننا، هل هي حب أو صداقة، وطبول العشق تدق

في قلبي. مرت العلاقة على هذا الحال أكثر من أربعين يومًا، حتى قررت في ذلك اليوم أن أصارحها ببلابل العشق التي تتحرك في قلبي، بعد أربعين يومًا يصير الحب حقيقيًا أو يترك المحبون بعضهم كما يقول عباس كدودة، فهو يقول: «إذا استمرت العلاقة بين اثنين مختلفين نوعيًا أكثر من أربعين يومًا، فهي علاقة صادقة لا منقصة فيها، فالعلاقات غير الصادقة دائمًا ما تنتهي قبل أن تكمل أربعين يومًا». إذًا قد اكتملت العلاقة بيننا تحميضًا، أصبحت جاهزة لتوضع في إطار الحب الحقيقي. في بداية الأمر انتابتني بعض الهواجس، وتواترت في عقلي جملة من الأسئلة، كيف يكون حالي إذا رفضتني؟ استطعت أن أقهر حواجزي.. لا حب بلا مخاطرة، من يجري معادلة الاحتمالات لا يحب، كل شيء يسقط حينما يطأ المرء عتبة الحب، تفارقك الحبيبة ألف مرة، وحينما تعطيك الضوء الأخضر مرة أخرى، تصفح عنها وتعود إليها كأن شيئًا لم يحدث، تعود إلى حضنها وأنت تلبث ثوب مشاعر جديدة وتنسى كل ما فات. العشاق لا يحتفظون بسجلات الماضي السيئة، كل يغفر للآخر كما الله يفعل. العاشق الحقيقي روحه كروح مانديلا، لا يترك مرارة في قلبه أو ضغينة، يظلمه الحبيب مائة مرة، لكن في كل مرة يلتمس له العذر ويصفح عنه.

قررتُ أن أعترف لها بحبي، الانتظار مضيعة للوقت، لست جريئًا لكن الحب يمدني قوة لأبقى شجاعًا. هاتفتها قلت لها بأني أريدها غدًا في أمر مهم، اتفقنا أن نلتقي غدًا عند الساعة التاسعة والنصف قبل موعد المحاضرة. في تلك الليلة نمت نومًا متقطعًا، وحلمت حلمًا مفزعًا، حلمت بأني مقيد في

أحد أعمدة مسجد مهجورة، كنت لا أرى ما حولي من شدة الظلام، أخذتُ أصيح بكامل قوتي، لكن كان صوتي لا يخرج من حنجرتي، ظللت في هذا الحال لوقت طويل حتى جاء شيخ يلبس ثوبا أبيض يحمل شعلة في يده، ومن خلفه حواريه يرددون ترنيمات جنائزية، وقف عندي صامتًا ويتطاير الشرر في عينيه، رأيت عبير تقف بعيدًا وتلبس ثوبًا أسود وتبتسم ابتسامتها المعهودة، تمد لي يديها بأن آخذها، خاطبني الشيخ بصرامة قائلًا: أتحبها قبل أن آذن لك؟ حاولت أن أجيب لكن صوتي كان لا يخرج من حنجرتي، سألني مرة أخرى نفس السؤال، صمت قبل أن يردف قائلًا: حينما لم يجد رد مني، ألا تدري بأنها ابنة الإله؟ هنا خرج صوتي، صرخت أحبها، أحبها فلتسقط كل الآلهة.

استيقظت على صوت كوجاك، فركت عيني وطردت بقايا النعاس المتربص على جفني، نظرت إلى الساعة كانت تتجاوز التاسعة صباحًا، حمدت الله بأنه كان مجرد أضغاث أحلام، فأمي حينما أقص لها حلما حلمت به، تسألني عن الوقت الذي حلمت فيه الحلم، إذا كان منتصف الليل فإنه حلم حقيقي، ولكن إذا كان مع الفجر أو بعد الفجر فهو مجرد أضغاث أحلام وكوابيس لا يرجى تحققه.

تبًا ، هكذا قلت وأنا أنظر إلى الساعة فلم يتبقَ من زمن موعدنا إلا أقل من نصف ساعة. في ذلك الصباح، كنت أرى صورتها في كل شيء، حتى الماء المتدفق من الدش لحظة استحمامي يرسم صورتها بدقة، خرجت مسرعًا، وجدتها تنتظرني، كنت أتوقع أن تندهش حينما أعترف لها بحبي، لكن قابلت هذا الاعتراف بكل برود، قالت بكل ثقة: أنا أيضًا أحبك، دخلت حياتي منذ

أن رأيتك أول مرة، على الرغم من أني لم أعترف لك بذلك.

الحب ليس مجرد كلمة ننطقها، بل إحساس نحسه. أحيانا الكلمات لا تكفي للتعبير عن ما بداخلنا، هنالك مشاعر نحتويها لا تستطيع كل المفردات أن تعبر عنها، حتى كلمة الحب نشعر بها ناقصة، ما أشعر به شيء يفوق الحب، شيء لا أحيا إلا به كالأوكسجين تمامًا. أحسست بأني ولدت جديدًا من عمق اللحظة التي نطقت فيها كلمة الحب، عقلي صفحة ناصعة البياض.

منذ أن دخلت عبير حياتي، حدثت تغييرات كثيرة في حياتي، بتُ أهتم بوسامتي وتناسق مظهري أكثر من أي وقت مضى، أختار ملابسي بعناية شديدة، أشتري ملابسي من السوق الأفرنجية وشارع الدكاترة في أمدرمان، وأختار الخامات التركية والإيطالية، بعد أن كنت أشتري الملابس دون الاهتمام بالماركات، وكنت أفضل الملابس الرخيصة التي تباع في الأسواق الشعبية، وحتى شعري أصبحت أعطيه عناية أكثر، جعلت له زبونا خاصا في صالون الأدباء في حي القادسية أذهب إليه كل أسبوع، بعد أن كنت أترك شعر رأسي كثًا لا أحلقه لعدة أسابيع، أقضي أكبر وقت ممكن أمام المرآة لتحسين هندامي قبل أن أذهب إلى الجامعة. تعلمت السهر أيضًا، أصبحت آخر من ينام في الغرفة، بعد أن كنت أنام منذ العاشرة مساءً. فمن يريد أن يظل في عرش الحب لا بد أن يدفع إتاوة السهر، فمن ينام قرير العين، فارقه الحب. كل يوم أنتظر بشغف إيماني إلى قبلتها المسائية عندما تهاتفني، كنا نسميها قبلة ما قبل النوم، أتخيلها تحيطني بذراعيها وهي تبتسم ابتسامتها المعهودة، تعبر بي إلى فضاءات الدهشة والسعادة، أناديها بالوردة السوداء،

وتناديني بالرجل الأسمر، أتذكر جاءت في ذلك اليوم ترتدي عباءة سوداء، تناسب طقس ذلك اليوم المتقلب، الذي تحرك فيه الرياح كتلًا من الغبار بين الفينة والأخرى، بعد أن نظرتُ إليها نظرة كاملة قلت:

• الأسود يليق بكِ.

قالت واثقة:

• الأسود يليق بنا جميعًا.

حركت جملتها هذه سؤالًا راكدًا في عقلي.. تساءلت، هل اللون الأسود يليق بنا حقًا أو هذا ادعاء منا، إن كان يليق بنا، لماذا نصف كل شيء سيئ بالسواد، وحتى نحن السود نقع في هذا الفخ الذي نصب لنا. لماذا البعض يعتقد بأن اللون هو الذي يحدد قيمة الإنسان؟ بل لماذا أصحاب الشعر المجعد واللون الداكن هم أكثر عرضة لركلات العسكر؟ هل يحملون الإجرام في جيناتهم؟ فحينما تحدث عملية سرقة يكون الشخص الأسود الموجود في موقع الجريمة هو المتهم الأول.

قالت بعد فترة صمت:

• أراك تحب اللون الأسود.

قلت:

• بل أقدسه.

بماذا أناديك؟ سألتها هذا السؤال بدون مناسبة، ولا أدري هل صائب أو خاطئ، حاولت أن أبرر لسؤالي، قلت:

• كل الناس ينادونكِ بعبير، أنا أريد أن أناديكِ باسم مختلف خاص بي

وحدي.

قالت بثقة:

• بما أنك تحب السواد فلتناديني بالوردة السوداء.

ومنذ ذلك الوقت زدت عشقًا بكل ما هو أسود.

صارت دائرة أشيائي لا تكتمل إلا بحضورها، وشمس حياتي لا تشرق بدونها، أصبحت عبير سيدة تفكيري، لا تبارح ذاكرتي البتة، في أجندة كل يوم كان اللقاء جندًا ثابتًا، لا يستقيم اليوم دون اللقاء، التقي بها وأنا أكن لها شوقًا بحجم الكون، قلبي يقيم مراسم احتفال على شرف اللقاء، ما إن ألتقي بها إلا وينشرح قلبي، كأنها تنثر إكليل السعادة في روحي، أشعر بالراحة والهدوء، يغشاني الأمل بأن أقاتل حتى النهاية رغم الهزائم المتلاحقة، أحسها داخل أغوار قلبي، صار اللقاء كفنجان قهوة نهارية عند سلامة لا يستقيم اليوم دونه، ندخل المحاضرات ونحن نترافق، نجلس بجوار بعضنا، فحينما تكون بجواري يكون ذهني أكثر صفاء. يمر الوقت دون أن أشعر به، اللحظات السعيدة تمر سريعة، أتمنى أن تكون أبطأ، أن أوقف مؤشر الساعة بأن لا تتحرك، أترجى الشمس بأن تبقى مشرقة وألَّا تفارق كبد السماء، لكنها كانت تستعجل الرحيل، تغادر دون أن أرتوي، أودع عبير وفي نفسي شيء من حنين، أعود إلى السكن الطلابي، وقبل أن يجف اللقاء إلا وأشتاق إليها، أهاتفها، أطمئن عليها، أسألها هل وصلت بسلام؟ ترد بالإيجاب، أقول لها أحبك، ثم تقول: «أنا بموت فيك». حينما أستيقظ تكون مخيلتي متخمة بصورتها، أتفقد عند الصباح رسائلها الصباحية قبل أن أنهض من

فراشي. كثيرًا ما كنت أخطأ وأنادي فتاة غيرها باسمها، كان اسمها أول كلمة في قاموسي، كان مفتاحًا لأي حديث، لا يمكن أن ألج إلى صدر الحديث دون ذكر اسمها. حينما تغيب عن الجامعة تمر اللحظات ببطء شديد، أشعر بثقل قاتل كأن صخرة تنام في قلبي، كل شيء يصير باهتًا وبلا طعم، أيام العطل كم كانت قاسية، تكون متخمة بالشوق والحنين، تغزو جيوش الرتابة لحظاتي، تحدث فوضى في الروح، حديثها في الهاتف يشعرني بشوق عارم إليها، «البُعد المقياس الحقيقي لشدة العشق» تلمع صورتها في ذاكرتي، أمتطي صهوة خيالي، أحلق فوق مدن بعيدة، أراها تجلس هناك على الضفة الأخرى وتناديني بشوق درويش، أتذكر خصلة شعرها التي أهدتني إياها، آخذها وأستنشق منها عبيرها، فجأة أجدها تجلس بجواري، أغمرها بالقبل، وأرتمي في حضنها وأداعب شعرها المنسدل، وهي تمسح ذقني الذي يطل. أردد كل أبيات الشعر التي أحفظها، فقد كان سيف الدين الدسوقي شاعرها المفضل، أردد:

جاءت تودعني في لحظة السفر
سمراء أكثر إشراقًا من القمر
عودي إلي فإكسير الحياة هنا
نحن التراص ومجري النهر والجذر

زكريات مهجورة...

لم أفكر يومًا بعبير كرفيقة فراش، أو عشيقة لحظات عابرة، بل كانت كشيء لا يحيا المرء إلا به، قبل أن تدخل عبير حياتي كنت زاهدًا في النساء، حينما يكون الحديث كنت لا أساهم في الحديث كثيرًا، كل اهتمامي أن أتخرج من الجامعة بدرجة تؤهلني إلى وظيفة تجعل والدي يفتخر أمام الناس، البعض لا يصدق حينما أعترف بأني بتول، ولم يسبق أن ضاجعت امرأة. كل من حولي حينما يحكون قصصهم العاطفية، ويطلبون مني أن أحكي لهم عن مغامراتي، أفاجئهم بأن سجل حياتي خالٍ من أي مغامرة عاطفية. كان حينما يتصاعد لهب النقاش السياسي بين مصعب الصادق وكوجاك كبشور كنا نهرب أنا وفؤاد عباس إلى الغرفة 36 التي يطلق عليها نادي المغامرات العاطفية، ونلوذ بقصصها المثيرة. كانت غرفة عامرة بحكايات الحب، تعقد فيها جلسات لهذه القصص، كل من يحضرها لا بد أن يشارك الناس مغامراته العاطفية، ومن يتحدث عن شيء غير الحب في هذه الجلسات فلا يقبل منه وهو من المهمشين. في هذه الغرفة تعرفت على أساطين العشاق كما يطلق عليهم فؤاد عباس.

كان فؤاد عباس الملك المحتفى به في هذا المجلس، دائمًا ما يمسك بزمام الحديث، يتحلق حوله الجميع، يحكي عن مغامراته العاطفية بذهن

متقد، فهو حاذق وخبير في المسائل الجنسية التي كانت وجبة دسمة نقتل بها تعاستنا، يحدثنا عن تجاربه ومغامراته الكثيرة مع الفتيات المختلفات، من يسمعه يظن بأن هذه القصص من بنات أفكاره وخياله الخصب، لكن من يعاشره يتأكد صدق ما يقول. يصيب عباس أهدافه بدقة دون أن يخطئ، له قدرة فائقة في التأثير على الحالة النفسية لأي فتاة يجلس معها، لا يستحي من مراودتها عن نفسها، ما إن يجلس معها حتى يشعل فيها الرغبة حالًا، يجعلها تفقد وقارها وتشتعل رغبة وتبادر باحتضانه أو تقبيله، وهو لا يتوانى في إطفاء نار رغبتها المشتعلة، فهو كريم معطاء في هذا الجانب، يقول بأن المرأة أكثر سهولة في الانقياد إلى السرير، معظم الفتيات التي يضاجعهن لا تتوقع منهن أن يكن ممكنات إلى هذا الحد، فشيطان الشهوة أقوى من ملائكة الفضيلة. لذا كان يغار عليهن متى ما سنحت له الفرصة، يقول إذا لم يجد المرء ما يحب فليحب ما يجد، أما هو فلم يجد غير الجنس. يضيف بأن المرأة خلقت لكي تفض بكارتها، وأنها مهما ارتقت في آفاق الحياة، ستظل تدور حول محور شهوتها. وأعظم شيء إنساني يمكن أن تقدمه لهن أن تقضي وطرهن. كان أيضا يقول إن الحب ما هو إلا مجرد دفع شهواني. الحب أكبر غلطة يرتكبها الرجل، أن تحب يعني أن تتحامق وأن تتنازل عن جزء من كينونتك، ولذا حينما تتعرف على فتاة دع الحب جانبًا، عليك بالتفكير في مضاجعتها. مع ذلك كان الأكثر منا حظوة في عالم النساء، لو عددت الفتيات اللاتي في حياته لوجدتهن يفقن عدد أصابع يدك ورجليك، كان بارعًا جدًا في إيقاع الفتيات، خاصة اللائي

يسكن في الأحياء الطرفية، فقد دشن أكثر من ثلاثين علاقة عاطفية في ظرف ثلاث سنوات، كل سنة بمعدل عشر فتيات كما قال، لكن من هذه الثلاثين اعترف بأنه أحب أربع فتيات فقط منهن بصدق، وتمنى أن تكون أي واحدة منهن زوجته المستقبلية.

لم يقتصر فؤاد عباس على النساء السودانيات فقط، بل حكى لنا بأنه يعشق الحبشيات عشقًا خاصًا، يقول بأن اللذة بين أقدام الحبشيات، هن ذوات طعم عذب كعذوبة ماء النيل الأزرق، يقول إنه ما كان طعم ماء النيل الأزرق أعذب لولا الحبشيات يغتسلن في مائه قبل أن يأتي إلى السودان، فعذوبة مائه ما هي إلا رحيق أنوثتهن، ولم يجد أعنف من الحبشيات في ممارسة الجنس، كان كثيرًا ما يتردد إلى حي الديم جنوب الخرطوم، لديه كثير من العشيقات هناك.

بعد أن تخرج فؤاد عباس، أرسل له زوج أخته المقيم في المملكة العربية السعودية إقامة وتذكرة سفر، قبل أن يسافر أقمنا له حفلة وداع صغيرة في شارع النيل، شرب في هذه الليلة الخمر كما لم يشرب من قبل، حينما طلبنا منه أن يكتفي بكأس واحدة، قال لنا بأن هذه السكرة هي سكرة الوداع ولا بد أن تكون كما ينبغي، وأنه مسافر إلى السعودية وليس هنالك خمر. أتذكر بعد أن أفرغ في جوفه كل الخمر الذي في يده، طلب من الجميع الإنصات ليقدم لنا وصيته الأخيرة، قال: ضاجع كل مضاجعة كأنها آخر مضاجعة في حياتك، لا تحرم نفسك من اللذة، إن الحب الذي لا يطعم بممارسة جنسية فهو حب غير مقدس. صمت برهة قبل أن يقول مرة

أخرى وهو ينظر في وجهي كأن كلامه موجه لي بالتحديد: لا تيأس مع فتاة حينما تصدك مرة، حاول معها مرة أخرى، فمن ديدنهن يتمنعن وهن راغبات، وإن أسوأ شيء عند الرجل ألا يستطيع عضوه الانتصاب.

كان كوجاك يصف فؤاد عباس بالانتهازي الذي يستغل حوجة البنات الفقيرات، يتهمه بأنه لا يضاجع سوى البنات الفقيرات. كان عباس يرد نافيًا ذلك، يقول بأنه حينما يضاجع امرأة فقيرة يشعر بأنه يستغل حوجتها، فالأفضل عليه الاستمناء من أن يشارك الفراش امرأة مقهورة تداعر من أجل لقمة العيش، وكان له معادلة...الجنس+ الاستغلال= النجاسة... يقول بأنه لا يضاجع غير بنات الأحياء الراقية: «عندما أمارس الجنس مع فتاة ثرية هذا بمثابة انتصار لكرامتي وإنسانيتي» يرسم صورة وردية للسيناريو المتوقع حينما يمارس الجنس مع فتاة من أسرة ثرية، يضيف: «سأعمل جاهدًا بأن يخترق أحد حيواناتي المنوية جدار رحمها لكي تحمل مني، حتى يأتي أهلها ويطلبون مني بكل انكسار أن أتزوجها خوفًا من العار، حينها سأرفض، أو على الأقل سأملي عليهم شروطي وستكون تعسفية بكل تأكيد». يرد له كوجاك قائلًا: حينما يكتشف أهلها بأنك الفاعل، ستذهب إلى الجحيم قبل أن تملي عليهم شروطك. فؤاد ليس سيئًا إلى هذه الدرجة، ذات مرة وجدته يبكي بحرقة، حينما سألته عن سبب بكائه لم يجب، وبعد فترة حكي لي عن سبب بكائه، كان في تلك الفترة تعرف على امرأة قوادة، حينما ذهب إليها وجد فتاة تبكي، عندما استفسر منها الأمر، أخبرته بأنها طالبة تدرس في الجامعة وليست

عاهرة وأن ظروفها المادية جعلتها تسلك هذا الطريق، أهلها يعيشون في أحد المعسكرات بالقرب من دولة تشاد، قتل والدها قبل عامين ووالدتها مريضة، وهي في سنتها الأخيرة في الجامعة ولا تريد أن تترك الجامعة دون أن تكمل الدراسة، أمامها خياران إما أن تفعل هذا الشيء لتكمل الدراسة أو أن تتركها، وحتى إذا تركتها وعادت إلى مسقط رأسها ماذا تفعل في معسكر نازحين، أعطاها كل ما في جيبه وأوصلها إلى سكنها، أمرها ألا تعود إلى هذه المرأة مرة أخرى، وأن تتصل به إذا احتاجت شيئًا، ومنذ تلك اللحظة أصبح عباس كدود ينفق عليها حتى تخرجت.

روح تتمزق....

بعد أن تخرجت من الجامعة لم أغادر السكن الطلابي، احتفظت بموقعي لمدة عامين بكل أنانية، تعلمت كل شيء في ذلك الوقت، حتى الشراب تعلمته في تلك الأيام، أجلب الخمر من «مورسيا» أو عند «بيت النوير» في شارع النيل، أغيب عن الوعي لساعات قبل أن أصحو وأمارس احتجاجًا غير معلن، وأصب جام لعناتي سرًا على الطلاب. كل يوم أصبح أكثر لامبالاة، أقدس العزلة والانفراد، ما إن أستيقظ إلا وأجد قدم مزاجي قد وطئت أرضًا من الإحباط لم تطأه من قبل، أصبحت حاد المزاج أحدث الناس بتجهم، أرد على الجميع بكل امتعاض، حتى ابتسامتي لا أوزعها مجاملة، فلا أحد يستحق أن أبتسم في وجهه. بتُّ أكره السياسيين حد الثمالة، فالسياسي عندي ذلك الشخص القادر على إخفاء عواطفه وكتم مشاعره، وقد يرسم على شفتيه ابتسامة أخاذة وتجري على لسانه العبارات المعسولة، على حين يضمر في الأعماق الأذى وينوي الشرور والغدر، ويوجه لخصمه أسوأ ألوان الشتائم والسباب ويتساوى في ذلك مع المنافقين والانتهازيين ورجال الدين الكذبة، وعلى الإنسان العادي أن يأخذ حذره منه، فإنك لا تستطيع أن تعاشره دون أي أذى. السياسيون يسددون طعنات قاتلة لأحلامنا ومطالبنا، الوطن لا يتعدى

عندهم سوى جلباب يرتدونه في مناسبات رسمية ثم يخلعونه بانتهاء المراسم مباشرة، يقودون الناس في رحلة بلا بوصلة، ويبيعون قضايا شعبهم في قاعات المؤتمرات والفنادق والأندية الليلية، فالثائر اليوم منهم يتحول غدًا إلى ديكتاتور، والثورة كلمة لاكوها في أفواههم حتى فقدت مذاقها، أصبحت غير مهضومة للجماهير الجائعة للتغيير. أفكارهم كاهلة عاقرة لا تلد غير التشرذم، وأطروحاتهم لا تتمخض منها سوى البؤس.

أصبحت أكره المناضلين، وأتقزز من ملابسهم المتسخة مثل أفكارهم، يدعون الفقر ويتحدثون بأسماء الفقراء دون تفويض منهم ـ الفقراء أحق بأن يعبروا عن فقرهم ويناضلوا من أجل أنفسهم ـ لم تعد تستوحني الشعارات البراقة التي يرفعها الناشطون عن حقوق الإنسان والمرأة والعمال، أعتبرهم مجرد سذج لا ناقة لها في الفكر ولا جمل، يناضلون لأجل الجنس ومؤخرات النساء، يتبادلون الكتب المحرمة مثل سجارة برنجية، ينتقل الكتاب من يد لأخرى، ويبيت كل يوم عند شخص جديد ومختلف كامرأة عاهرة مطيعة. وترى الكتب المحرمة أيديولوجيًا وثقافيًا مغلفة بصفحات الجرائد كجسد امرأة تخاف على غشاء بكارتها، يقرأون كل شيء بنهم وفي النهاية لا يصلون لشيء. أبغضهم مثلما أبغض مناضلوا الحمامات، الذين يكتبون عبارات مقززة في جدران حمامات الكلية، ويصبون جام غضبهم الكلامي للحكومة، ويشتمونها بشتائم جنسية مقززة.

الإحباط يزيد كل يوم اتساعًا في حياتي، أشعر بأنى أسير عكس دوران

الواقع، ما إن يتقدم الزمن إلا وتزداد المسافة بيني وبين الواقع بعدًا، حتى عبير لم تستطع قتل إحباطاتي، في بداية أيام عطالتي، عندما تخرجنا بشهور، عملت عبير سكرتيرة في مكتب خالها، وبعدما تنتهي من العمل تتصل بي لنلتقي، أحيانا تدس في جيبي مبلغًا من المال، أشعر بحرج شديد وآخذ المال على مضض، تطمئنني بأن كل شيء سيكون بخير، في لحظة ما انتابني شعور بأني سأفقدها، خاصة حينما طلبت مني أن أتقدم لخطبتها، لكنني رفضت، وتحاججت بأني ماذا أقول لوالدها حين يسألني ماذا أعمل، قالت بأنها أخبرت والدها عني بكل شيء، لكنني بقيتُ مصرًا على رفضي، بكت كثيرًا في تلك اللحظة حتى أشفقت عليها، وعدتها بأني سأخطبها وقت ما أجد عملًا يجعلني أضع أول المداميك في تأسيس حياتي. بحثت كثيرًا عن عمل يليق بي وبها، ولكن المحاولات لم تفلح، طرقت أبوابًا كثيرة لكن في كل مرة أكتشف بأني أطرق الباب الخطأ، والخيبة تتمدد، حاولت عبير أن تساعدني على إيجاد عمل فتوسطت لي عند أحد أقربائها الذي يدير فندقًا شهيرًا في وسط الخرطوم، طلبت مني أن أذهب وأقابله، وافقت على مضض، استقبلتني موظفة الاستقبال الفلبينية، قفز في نفسي سؤال حائر، ماذا يحدث لو تم توظيفي مكانها، فتاة سودانية سمراء. ابتسمت الفلبينية كأنها قرأت ما يدور في خلدي، في الحقيقة قد استغرقت وقتًا وأنا أمتطي صهوة جياد أفكاري وأنظر إلى عينيها الزرقاوين، رحبت بي بعربية رديئة، سألتها عن مكتب «معتصم» مدير الفندق، طلبت مني أن أجلس في الأريكة التي تواجهها لتقوم بالاتصال به. كان الفندق هادئًا

في ذلك الوقت، إلا من حركة العمال الأنيقين الباسمين، الذين يرتدون قمصانًا برتقالية وبناطلين سوداء وربطات عنق رمادية، جاء معتصم بنفسه، كان رجلًا فوق الأربعين، ترتسم في جبهته علامة الصلاة، صافحني بقوة كأنه يعرفني مسبقًا، طلب مني أن أتبعه إلى مكتبه، تبعته متفحصًا المكان بنظرات زائغة، إلى أن توقفنا في الطابق الثاني حيث يقبع مكتبه هناك، كان كل شيء يثير الاهتمام، الأثاث الفاخر، الصور المعلقة في الجدران، الأوسمة والشهادات التكريمية المتراصة في المنضدة الفاخرة، جلست في كرسي شاغر يواجهه، ومضيت أنظر إلى سقف الغرفة المنقوش بأشكال مبهمة، رسمها فنان سريالي، مضى وقت قليل، تمنيت أن يبادرني بالحديث، وفعل، ابتسم قليلًا وتنحنح قائلًا:

• أخبرتني عبير بأنك تبحث عن العمل.

قلت له مؤكدًا:

• نعم، بالفعل أحتاج إلى عمل.

قال وهو يبتسم:

• في أي عمل تريد أن تعمل.

قلت:

• أي عمل يحفظ كرامتي ويصون حقي كعامل، ويوفر لي الحد المعقول من احتياجاتي الإنسانية.

قال بحدة:

• هل هنالك عمل لا يحفظ الكرامة.

صمت، فلم أكن مستعدًا للتفوه بأي شيء يفسد هذا اللقاء، فأنا بحاجة إلى وظيفة ولو لفترة مؤقتة. أخذ ينظر إلى وجهي منتظرًا الجواب ولكن لم أجب، وواصل الحديث:

• أعتقد بأنك تؤمن بحقوق الطبقة العاملة، والصراع الطبقي

لم أجب مرة أخرى.

• هل ترضى أن تعمل تحت شخص رأسمالي لعين، فأنتم الاشتراكيون تعتقدون بأن أي رأسمالي شخص بغيض.

كنت في بداية الأمر أعتقد بأنه يريد أن يستفزني، حتى يقيس مدى صبري، كما يفعل معظم المديرين حينما يريدون أن يعينوا شخصًا في وظيفة، لذا قلت له واثقًا:

• حينما نقدم نقدًا لفكر ما، لا بد وأن نرجع لإطاره النظري، ونبحث هل الفكر منطقي أو غير منطقي، وألا نحكم على فكر بتجربة الأشخاص، مثلًا بعد أن فشل الإسلام السياسي في توفير الرفاهية للشعوب الإسلامية، هذا ليس كافيًا لأن نقول الفكر الإسلامي فاشل.

ابتسم وهو يعدل كرفتته الحمراء وقال:

• الإسلاميين لم يفشلوا، بل أنتم الاشتراكيون الذين فشلتم، الاشتراكية قد أفل نجمها، أصبحت مجرد أفكار طوباوية.

حاولت أن أوضح له بأني أقف في مسافة واحدة بين كل الأنظمة والأفكار والأيديولوجيات وكلها عندي في منزلة واحدة، لكنه قاطعني وقال:

• الرأسمالية أثبتت نجاحها من الأدنى للأعلى، خذ مثلًا أقل فنانة رأسمالية تستطيع تأمين مؤخرتها أو نهديها بملايين الدولارات، وأنت فشلت في تأمين قوت يومك ولذا أتيت تبحث عن عمل عند شخص رأسمالي لعين.

خرجت من مكتبه دون أن ألتفت إلى صياحه لي بالانتظار، عدت إلى السكن الطلابي وداخلي محطم كل ما أحاول ترميمه جرحني حطام الحزن، أحس كلماته كخنجر حاد في قلبي، مكثت ثلاثة أيام لا أحادث أحدًا لم أهاتف عبير ليومين.

رائحة الخمر....

الشمس تمد أشعتها بكامل طاقتها، أخذتُ أفكر بصورة جادة في الشراب، وأحتسى من خمر «زينوبة» الوفير، الخمر الشيء الوحيد الذي يجعلنا نعيش في عوالم تخصنا، كل ما في الواقع لا يخصنا. مشيت بخطوات مبعثرة، الطريق خالٍ إلا من بعض الدواب المتسكعة كأن الناس في حداد، كانت سحابة بدأت تتكون في السماء، إنه أغسطس شهر بكاء السماء بسخاء، يوم مشمس سرعان ما ينقلب إلى مطير، سحب رمادية تغزو السماء بغتة، وينهمر مطرًا مصحوبًا ببرد غير معتاد إلا في الشتاء وأحيانًا رياح عاتية. غابة صغيرة من الشجيرات المبعثرة تحتوي بيتها، تسكن وحدها، لديها زبائن كثر يطلقون عليها أخصائية العرقي لإجادتها لهذه الصنعة، فهي بائعة مخلصة لتجارتها، تبيع خمرًا معتقًا ورخيصًا، ولا تغش في سلعتها، ولا تضع في العرقي نفايات البطاريات والأحذية القديمة والقمامة كما تفعل غيرها من الإندايات، مما جعل رواد كثر يتوافدون على بيتها خاصة بعد مغيب الشمس ويجتمعون في إنس بهيج، ويشربون زرافات ويتناقلون أخبار البلد ويتسامرون حتى منتصف الليل، فكل أخبار القرية تجدها في هذا المجلس، فحينما يفعل الخمر أفاعيله تنهار كل الحواجز وتتم إذاعة الأسرار على الملأ، يشربون منها بالدين أحيانًا، فهي

تقدر الحاجة، لا يخرج أحد من بيتها إلا والخمر تلعب بعقله، فهي طيبة القلب على كل حال.

دخلت بيتها ورائحة «العرقي» المعتق تزكم أنفي وتجذبني كما يجذب المغنطيس الحديد، فللعرقي عبق خاص قاتل للعقل. وجدت البيت فارغًا إلا منها، كانت جالسة في ظل شجرة نيم هرمة تتوسط بيتها، وتطحن الذرة في حجر صخري صلب بجدية ونشاط، ترتدي فستانًا مزينًا برسومات من الحيوانات والأشجار، بدت كغابة استوائية بكرة لم تطلها يد الإنسان العابثة، ويكشف فستانها ساقيها المتفحمتين، وشعر أسود مجعد وقد تسلل الشيب بين خصلاته.

زينوبة.. امرأة في خمسينيات العمر، لها أسنان ناصعة البياض، حينما تبتسم في الليل يكاد ضوء أسنانها البيضاء اللامعة يخترق العتمة، لا أعرف عنها سوى القليل، ومن هذا القليل أن اسمها «نيايا وشي» وأنها كانت متزوجة ولها بنت اسمها أجاك كانت وليمة للحرب، وزوجها كذلك قتل عندما تم حرق قريتهم من قبل جماعة مسلحة وتحويلها إلى تلة من الخراب، ولم ينجُ من المحرقة إلا القليلون الذين لاذوا ببطون الأودية والأشجار أو كهوف الجبال، وهي منهم. ما يهمني أنها طيبة، تناديني باسمي، ودائمًا ما تسألني عن حالي، أنافق دائمًا أني بخير.

كل جلسة شراب بمثابة مهرجان، يتحلق حولها الجميع بوجوه تشع غبطة وطمأنينة كدراويش في حلقات الذكر، لكنها حلقات ذكر من نوع آخر، لها طعم خاص، يفوق أثره الأثر الذي تحدثه دقات طبول النوبة

في قلوب الدراويش، تتناجى فيه رغبة الجسد مع نشوة العقل المنتشي. تقف زينوبة وسط الدائرة المتشكلة من المتحلقين حولها، الشاخصين بأبصارهم في مفاصل جسدها التي تحركها بمهارة كراقصة محترفة ترقص في إحدى صالات الرقص الباريسية، ترقص بجسد رشيق، تهز أردافها الناحلة وصدرها القاحل بكل براعة، تجعل العيون جاحظة ومسمرة على جسدها متابعة لهذا الأداء المثير، قبل أن تغني وتدندن بكلمات تمزج ما بين العربية ولغتها المحلية في تناسق تام، كثيرًا ما غنت بلغتها المحلية، جميع المتحلقين لا يفهمون شيئًا عن ما تقول، لكن صوتها كافٍ لجعلهم في أعلى سلالم النشوة والانبساط لحد يتمايلون طربًا، فصوتها يستحوذ على العقل والروح، لصوتها بحة تكتسح كل القلوب، وأحيانًا هارون أبو كديسة يقوم بدور المغني يغني بصوت جهور أغاني الحقيبة أو إحدى أغاني شرحبيل أحمد، ويتولى أحد الأشخاص دور العزف على أحد الأواني، كل جلسة شراب تتحول إلى سهرة من البهجة تنتهي بمنتصف الليل ليهب الجميع إلى مضاجعهم ويتركونها وحدها، كثيرًا ما تساءلت في نفسي، كيف تعيش وحدها في هذا البيت الذي يقبع في هذه المنطقة الطرفية البعيدة من مساكن الناس دون أن تخاف أن يتعدى عليها أحد؟

رفعت وجهها الناعم كاللبن المسحون تسألني عن حالي، نافقت بأني بخير، جاء هارون أبوكديسة، وصافحني بأيدي باطشة ما زلت أتذكرها عندما كان يصفعني بها في مؤخرة رأسي أيام الخدمة الوطنية، في تلك الفترة كان يعمل تعلمجي في معسكر الخدمة الوطنية بعد أن عاد من الجنوب..

هارون أبوكديسة رجل في منتصف الأربعين، طويل القامة، ضخم الجثة، ذو أنف زنجية عريض وشفة غليظة، بشرته مائلة إلى القتامة، له شارب ضخم يجعل شخصيته مهيبة يرتدي قبعة سوداء لا تفارق رأسه الأصلع إلا حينما ينام، ملتحٍ لحية غير منتظمة، له ذراعان مفتولتان، تنتج ألمًا مضاعفًا حينما يصفعك بها، مما يجعل الكثيرين يهابونه، وبهذه الملامح يبدو صارمًا إلا حينما يشرب، يكتسي ملامحه بعض الحزن، تتحول قسوته إلى طيبة، يقال بأن الخمر يظهر أسوأ صفات الإنسان، لكن أبو كديسة حينما يشرب يبدو في أحسن حال، يتحول إلى إنسان ودود، على الأقل حينما يسكر لا يفتعل المشاكل، يصمت، أحيانا يغني لشرحبيل أحمد «أبو شعور رقيقة تسمح لي بدقيقة وريني في بالك قولي الحقيقة» لذا لم تعترض زوجته «زبيدة باتي» يومًا على سكره، بل تعطيه المال ليسكر حينما يكون مفلسًا، أيضًا كان يتحاشاه الصبيان يقولون فيما بينهم أنه مثلي جنسيًا، قيل أنه تعلم الشذوذ الجنسي أثناء عمله في الجنوب. كان يتباهي هارون أبو كديسة بشبابه وقوته حينما كنا في معسكر الخدمة الوطنية قبل الجامعة، صار الآن هارون أبوكديسة كاهلًا وأكبر سنًا. كان أول من وضع نطفة كره العسكر في قلبي، قبل أن تحول الأحداث المتواترة تلك النطفة إلى علقة ثم كراهية دائمة وعداوة لا تلين، كنت قبل معسكر الخدمة الوطنية أحلم بأن أكون ضابطًا في الجيش، أو أضعف الإيمان أن أكون ضابطًا في الشرطة تتلألأ النجوم في كتفي، ألبس بزتي العسكرية، أتبختر في مشيتي، أزرع الرهبة المجانية في قلوب الناس، أبطش بكل من أبغضه وأنتقم من

أعداء طفولتي، تبددت هذه الأفكار بعد المعسكر وبت أكره حتى الألوان التي تذكرني بالعسكر. منذ أن عرفت هارون أبوكديسة مدمنًا للخمر، كان يأخذ التمر منا عنوة في المعسكر ويعطيه لصانعات العرقي، وأحيانًا يسرق تمر الميز ويعطيه لهن، فقد كان مسئولًا من الميز، وكان يطلب من الطباخ الإكثار من العطرون في الوجبات لقتل رغبتنا الجنسية، كنت لا أرى جدوى لإضافة العطرون، فالتدريبات الشاقة التي كنا نتلقاها كانت كفيلة بأن تطفئ نار مراهقتنا المتأججة. يشرب هارون كالإسفنج، تعلم الشراب في الجنوب حينما كان جنديًا، فالجنود لا شيء يبقيهم في الأحراش والأدغال سوى الخمر، يمدهم بقوة، يقتل خوفهم وهواجسهم، يجعلهم يشعرون بأنهم يمتلكون قوة خارقة، وقلوبهم صلبة.

صال هارون وجال في أدغال الجنوب محاربًا في صفوف الجيش الأمامية، قاتل أكثر من عشرين عامًا قبل أن يتم إعفاؤه من الخدمة بعد أن عمل لفترة ثلاث سنوات كتعلمجي في معسكر الخدمة الوطنية، استلم جزءًا من حقوقه وبنى بيتًا متواضعًا واشترى عربة كارو يجرها حمار، يعمل بها في القرية، ينقل للناس بضاعتهم وأمتعتهم، وتزوج «زبيدة باتي» بعد أن مات زوجها الذي كان زميله في الجنوب. يحبها حبًا لا يليق بشخصيته، يتحول أمامها إلى حمل وديع، يقال بأنها استعانت بالدجالين لتلين قلبه، وأن أحدهم أوصاها بأن تغسل لباسها الداخلي ثلاث مرات بعد أن تلبسه لمدة شهر ثم تذيب عصيرًا في هذا الماء وتقدمه لزوجها، ففعلت، ومنذ ذلك الحين دنا لها قلبه، لا يرفض لها طلبًا ولا يعصي لها

أمرًا، يفعل ما تأمره به، تخرج وقت ما تشاء وتعود دون أن يعترض.

أتت زينوبة بالشراب وضعت لكل واحد منا كأسه ثم ذهبت إلى حالها مواصلة في طحن الذرة، أمسك هارون كأسه وتجرعها دفعة واحدة بصمت وأنا أنظر إليه مذهولًا ومبطئًا في الشراب، فأنا لست ماهرًا في الشراب مثله، لولا لعنة الحياة لما تجرعت هذا الماء اللعين، فالحياة كفيلة بإفساد أي إنسان، قبل أن أمسك الكأس وأغمض عيني ولم أنزله إلا بعد أن فرغت منه، تسلل الخمر الى عقلي بسرعة. العرقي كالدواء يعمل بشكل أفضل عندما تكون المعدة فارغة، يجعل الأحشاء تتراقص كرقصة البالمبو الشهيرة، والجسد يتمايل طروبًا مع الموسيقى التي يعزفها العقل المنتشي، كل شيء يتوقف حينما يتسلل الخمر إلى العقل، تبدو الحياة فارغة من المعنى، كرحلة شاقة يقطعها الإنسان رغم أنفه، تتوقف المخيلة في تخوم الذاكرة، يسمع همس الأشياء الساكنة، يشعر المرء الحياة تدور كالرحى تقلب أعلاها سافلها، أحلاها ومرها.

في تلك اللحظة تذكرت سليمان أبوشامة زوج «زبيدة باتي» التي تزوجها هارون أبوكديسة بعد وفاة زوجها أو بعد استشهاده في الجنوب كما يقولون، كان رجلًا طيبًا، والموت دائمًا لا يختار إلا الطيبين مثله، البسطاء هم وليمة الموت، هم الذين يموتون بل يتوارون ويتركون فراغًا شاسعًا في حياتنا، أعلم أن كل شيء سيفنى حتى الحياة نفسها، ولكن ما أعلمه أكثر من يموت لا بد وأن يكون قد عاش فعلًا، فمثله لم يعرف للحياة مضمونًا، لذا فهم يتوارون ليتركوا تلك البراري الجرداء ليعمرها

غيرهم. لا أدري كم وقت استغرق الصمت، رفعت رأسي ونظرت إلى زينوبة ما تزال تطحن الذرة، شعرت بأني مدفوع لأقول، طال أمد الصراع، لما الاقتتال ونحن شيء واحد أو أبناء عمومة، بأي ذنب يقتلون الناس، الدين أم الأنانية؟ إني أحلم بيوم يأتي يتعانق فيه النخيل والباباي، وتحتضن الصحراء الغابة.

انفجر هارون بغتة ضاحكًا، وأخذ يضحك بشكل هستيري وأنا أنظر إليه بنظرات منسلة من عمق الدهشة، قبل أن يقول ورزاز من البلغم يتطاير من فمه ويبعث رائحة كريهة من عدم الاستياك الممزوجة برائحة التمباك، وأنا أقاوم لكي لا أتقيأ من الرائحة النتنة، قال بصوت جهور كأنه يخاطب حشدًا غفيرًا:

• نأكل مما نزرع ونلبس ما نصنع!

توقف عن الضحك كأنه تذكر شيئًا ما، طغي على ملامحه الجد، أخذ ينظر إليّ بعينين حمراوين، خاطبني قائلًا:

• هل أكلنا مما زرعنا، وهل شبعت بطوننا، وغطينا عورتنا مما صنعنا؟

بعد صمت أخذ يدندن:

ناس في السوق تكسب زيادة

وناس في الجنوب همهم الشهادة

هب واقفًا كأنه تذكر شيئًا ما وأخذ يهتف، هي لله.... هي لله... أمريكا روسيا قد دنا عذابها. أخذ يردد هذا الهتاف حتى تلاشى طيفه، وأنا أنظر إليه مذهولًا كأنني أسمع هذا الهتاف لأول مرة.

ساد الهدوء، تركتني زينوبة أرتحل إلى المدن البعيدة التي بنيتها في مخيلتي.
زينوبة حتى أبو كديسة يحترمها، كان لا يثير المشاكل في بيتها، كثيرًا ما قال إنه نادم حينما حمل ضد أهلها بندقية في يوم من الأيام. كلما أنظر إليها، تذكرني بشيء ما من الماضي، إنها تذكرني «سلامة» واشتم منها رائحتها، تشبهها في كل شيء، إذ تقاسمها القسمات والملامح الاستوائية الموغلة في الزنوجة من شكل أنفها الأفطس وطولها الفارع وشعرها المجعد ولونها الفحمي، إضافة إلى أن كليهما من ضحايا الحرب التي مزقت البلاد. يقال بأن إذا ما تعاركت الأفيال فإن العشب هو الذي يتضرر، وإذا ما دارت رحى الحرب فإن المدنيين يصبحون وقودها ويتضررون منها أكثر من غيرهم، فالحرب تشردهم من ديارهم وتبعدهم عن الأرض التي ألفوها، ويفقدون ثروتهم وتتفرق أسرهم أيادي سبأ ليعيشوا على هوامش الحياة في المدن، الحرب وباء تهلك كل شيء، وتنتهك كل القيم الإنسانية، وإذا لم تمت بالرصاصة أو باللغم فحتمًا ستموت بالجوع أو المرض، وإذا لم تنزح فإنك تعاني من الحرمان، فالحرب عواقبها وخيمة.

سلامة مفكرة أخبئها في خزينة ذاكرتي، أخرجها بين الحين والآخر لأقرأ هذه السطور «سلامة امرأة حطمت كل المجاديف ومع ذلك عبرت إلى الضفة الأخرى بسلام».

منذ أن التحقتُ بجامعة الخرطوم وجدتُها تعمل كبائعة شاي تحت ظل شجرة لبخ ضخمة في ساحة التفاؤل في كلية القانون، كانت بوتقة تنصهر فيها كل الأهواء والتوجهات، تجتمع عندها أعداد كبيرة من الطلاب

المثقفين، يتجاذبون الحديث حول أمور شتى. لكل شيء ثمن، أن تشرب الماء فإنك بحاجة إلى مكان لتتبول فيه. هؤلاء الطلاب حينما يلتهمون الكتاب تظل المعرفة تلح عليهم لذا يتصيدون الجلسات والمنتديات والأركان ليتبولوا ما قرأوه للناس، هكذا حال معظم الطلاب الذين يترددون على مكان سلامة، يجلسون بتناقضاتهم المهمومة ويرسمون ما يأملون أن يكون عليه مستقبلهم الرمادي، يخوضون في مواضيع عبثية ووجودية، يهتمون بالحدث ويتناقشون في الواقع المتشابك، يحلمون بمدينة فاضلة يسودها النظام، يبنون أحلامًا بلا سقوف، لكن سرعان ما تتحطم وتتحول إلى كومة من الأحزان، ويكون في رحمة الإحباط.

كنت حينما يخلص مصروفي أستلف منها خاصة في أيام الامتحانات التي يسمونها الطلاب بأوقات الشدة، حيث يكون معظم الطلاب قد صرفوا كل مصروفهم في شراء الكتب والمذكرات، عندما آتي لأسدد لها الدين ترفض أن تأخذ النقود، تقول لي باتسامة: إنه دين معلق في عنقي إلى أن أتوظف، كنت قد خططت أن أشتري لها هدية بأول مرتب أصرفه عندما أتوظف، لكن الأشياء أتت بما لا تشتهي الأمل. كانت عبير تتضايق من اهتمامي بها، لم تصرح بذلك لكن نظراتها وتصرفاتها أحيانا تفصح ذلك، لاحظت في سنواتنا الأخيرة في الجامعة لا تحبذ الجلوس في مكان سلامة، كثيرًا ما تطلب مني أن نجلس في مكان آخر، اعترفت ذات مرة بأنها تشعر بالتهميش عندما تجلس معي في مكانها، أتعامل معها كأنها غير موجودة، وكل الأضواء تتحول إلى سلامة، تعلم عبير أني لا أحب

غيرها، بل تدرك أني لا يمكن أن أرتبط بسلامة، بل حتى مجرد تفكير أن أقيم معها علاقة، إنها امرأة تجاوزت الأربعين مثل سن أمي بالتحديد وأنا بمنزلة ابنها، إنما يجمعنا حب مقدس من نوع آخر لا يدخل فيه شرط الزواج، فأنا الوحيد من الطلاب الذي يعلم بتفاصيل قصتها، ولكن هي غريزة الأنثى التي تتخيل كل شيء على غير حقيقته عندما يتعلق الأمر بفارسها ولها الحق في ذلك.

مرسى الذاكرة

هاتفتني عبير في ذلك اليوم، قالت بأنها لن تأتي إلى الجامعة، والدتها مريضة بعض الشيء، مضى الزمن بطيئًا، بدأ الملل يتسلل إلى نفسي، قررت أن أذهب إلى الجامعة لعلي أجد ما يخلصني من الملل، غادرت السكن الطلابي نحو الجامعة مسرعًا كأنني أهرب من وحش مخيف، ما إن عبرت بوابة النشاط حتى داهمتني رغبة الذهاب إلى «سلامة»، فهي الوحيدة القادرة على إضاءة عتمتي والقضاء على الملل الذي يسكنني، كانت الساعة الثانية ظهرًا، ويكون مكانها هادئًا في هذه الأثناء، قبل أن يبدأ الزبائن التوافد بعد الثالثة ظهرًا حيث يكون جلهم قد فرغ من المحاضرات والواجبات الدراسية. وجدتُ مكانها خاليًا من الزبائن إلا من «سامح الأمين» الذي كان يجلس بعيدًا ويحتسي فنجان قهوة بهدوء تام، ويبدو من نظراته غارقًا في بركة من الكآبة، والذي ما إن رآني حتى نهض وصافحني بعناق، كنت قد التقيت به مرات عديدة، حذرني منه «مصعب الصادق» ذات مرة وقال لي إنه «غواصة»، وهذه الكلمة مرادف لكلمة خلية نائمة، تطلق على الطلاب الذين تدسهم الأجهزة الأمنية وسط الناشطين السياسيين ليعملوا كمخبرين لها. شك فيه مصعب لمجرد أنه برجوازي. في تلك الفترة كانت تنتشر فوبيا الناشطين من الطلاب البرجوازيين، فقد أصبحت الأجهزة الأمنية تجند

الطلاب البرجوازيين بعد أن كانت تجند الطلاب الفقراء، خاصة القادمين من الريف لجمع المعلومات من الناشطين المعارضين، ورفع تقارير عن زملائهم السياسيين مقابل مبلغ من المال، أو وعدهم بالتوظيف بعد التخرج مباشرة، فقد كانوا يعملون بكل تفانٍ، ينقلون أدق تفاصيل ما يدور في اجتماعات المعارضة، فحينما يعتقل أحد الناشطين المعارضين تتم مواجهته بأدق دقائق الأمور التي تجري في اجتماعات النشطاء، لكن بعد أن تم كشف أمر هؤلاء الطلاب المندسين من أبناء الريف، غيرت الأجهزة الأمنية خطتها فأصبحت تجند هؤلاء الطلاب البرجوازيين، فمن الصعوبة أن يشك المرء في أمرهم، فمن هيئتهم لا يتوقع أحد أنهم يقومون بهذا الدور القذر، لكن فيما بعد تأكدت بأن «سامح الأمين» بريء من هذه التهمة، وعرفت أيضًا أنه كان عضوًا في مجموعة «الزي السماوي» وهي مجموعة كبيرة من الطلاب والطالبات مركزيتهم في كلية الآداب، ولها أذنابها في أرجاء كليات الجامعة، حامت حولها شبهات كثيرة، كانت في ظاهرها تبدو مجموعة تهتم بقضايا الجندر والنوع وتدافع عن حقوق المرأة وتنظم ندوات ومعارض في ذلك، لكن في باطنها كانت تسهل وتوفر لكل من يريد أن يمارس الجنس بطريقة آمنة دون أن تطاله يد السلطات. حينما التقيت سامح الأمين في أول مرة كان شابًا وسيم الطلعة، قمحي اللون، لكن في هذه المرة كان قاتم الوجه أكثر من المعتاد، ترتسم في وجهه سحابة من الكآبة، ملامحه تدل على أنه ليس بخير والأمور ليست على ما يرام، علمتُ قبل فترة قصيرة بأنه افترق مع حبيبته، فقد كان مفتونًا بفتاة من أسرة ثرية مشهورة بالمال والجمال، سمعتُ

عنها كثيرًا في الجرائد والإذاعة والتليفزيون، جل أفرادها مشاهير في الدولة، تزوج منها رجال أعمال ولاعبو كرة قدم وفنانون، أحبها بصدق ومنحها كل شيء بلا تردد، كان يعتقد أنها المبرر الوحيد لوجوده، هجر دراسته وأخذ يتسكع معها ويلهو لكن فجأة تهشم حلمه عندما تركته، فأخذ يتعاطي الخمر والمخدرات ولا يفيق من السكر قط. يقول فؤاد: «أن تفوز بقلب امرأة في الخرطوم فهذا هين، لكن أن تخسر قلبها فهذا أكثر هونًا».

تركت سامح الأمين في كآبته واتجهت نحو سلامة التي تعطر المكان بشذاها الجميل، وبشرتها الموغلة في السواد، ما إن رأتني حتى هبت واقفة كشجرة باسقة وصافحتني بقوة، وسألتني عن حالي، قلت لها: إني بخير، لكن ابتسامتها فضحت نفاقي، فقد كانت تجيد قراءة تعابير وجهي بدقة، تعلم بيسر متى أكون حزينًا أو سعيدًا.

بعد تبادل نظرات صامتة سألتني: ماذا أشرب؟

قلت دون أن أنظر في وجهها: شاي بالهبهان.

نظرت إلي نظرة فاحصة، ثم قالت:

• ماذا بك اليوم؟

تنافقت مرة أخرى:

• الأمور كلها على ما يرام.

تفحصت وجهي مرة أخرى وقالت:

• لست على ما يرام.

إنه الحب الذي لا يمكن إخفاؤه مثل تجاعيد امرأة هرمة، مهما حاولت أن

تخفيها بمساحيق تظل متربصة بملامحها. لم أستطع أن أجيب فبانت ابتسامة وقورة مرة أخرى في ثغرها كأنها سبرت غور ما يجيش بداخلي، وقرأت كل أسباب الملل الذي يجتاحني، تركتني في حالي وأخذت تعد لي الشاي، وأنا أتأملها بعيون فاحصة، كل ما أتوغل بنظرى نحوها أرى غموضًا ما، بدأت موجة من الفضول تعتمل في عقلي، لأول مرة غموضها يثير فضولي، لمع سؤال بريء لم يتبادر إلى ذهني طوال أربع سنوات، سألتها دون أن أشعر:

• من أين أنت يا سلامة؟

تغيرت ملامحها وطغت على وجهها سحابة قاتمة من التوتر لم أعهده فيها من قبل، لأول مرة أراها تنزعج من سؤالي، ربما نفضت غبار شيء ما مركون في ذاكرتها سنوات، حاولت أن تدفن توترها، قالت وهي تبتسم ابتسامة تتوارى من خلفها سحابة من الحزن:

• من الحاج يوسف الردمية.

قلت مرة أخرى دون أن أشعر:

• أقصد قريتك الأصلية، فمعظم سكان الخرطوم تعود جذورهم إلى مناطق أخرى.

حينها دمعت عيناها وسقطت منها دمعة حائرة، أحسست بأن شيء ما يخنقها، وأنها تعاني من حزنٍ عميق في قلبها، وتحمل سرًا غائرًا في ذاكرتها ومكتومًا في جوفها، لا تحب أن يشاركها فيه أحد، ربما لها الحق في ذلك، فكل منا تكفيه أوجاعه، لكل امرئ شأن يغنيه، ساد صمت، لكن بعد أن نظرت إليها مرة أخرى، شعرت بأنها تريد أن تقول شيئًا ما لكنها مترددة،

وهي بحاجة إلى أحد يشاركها ما في قلبها ويخفف عنها قليلًا، أخذ تفكيري يدفعني بأن أحرك سكونها وأفك طلاسمها الغامضة.. قلت لها:

• تكلمي وقولي لي ما بداخلك.

أردفت قائلًا بعد أن طال الصمت:

• ألا تقولين دائمًا بأني مثل ابنك وتحبينني أكثر من بقية الطلاب، فإذا لم تشركيني همومك فمن تشركين؟

قالت بعد أن مسحت دمعة شقت خدها:

• أتريد أن تعرف بالفعل من أكون وأين تعود جذوري؟

قلت متلهفًا:

• وسأكون سعيدًا أن أشاركِكِ حياتكِ.

بعد صمت قالت:

أنا من قرى جبال الأنقسنا، ولدت بعد موت والدي بشهرين، مات والدي وهو في الثلاثينيات من عمره، كان رقيب أول في الجيش عندما مات أو استشهد كما قالت الحكومة، ترك والدتي تقوم بمهمة تربيتي، كانت تعمل على الدوام في المزرعة التي تركها لها والدي، تعمل بدون كلل أو ملل رغم الأمراض التي تنهش جسدها وهي غافلة عنها أو قد تكون تدخر ثمن الدواء لغدٍ جائر، تتحمل المعاناة، المهم أن نحيا نحن حتى لو دفعت حياتها ثمنًا لذلك، تعود بعد أن تتوسط الشمس السماء تعد لنا الإفطار وتغسل ملابسنا، بعد أن كبرت قليلًا أصبحت أساعدها في الزراعة وأجلب الماء وأحلب الماشية، كان كل شيء يسير على ما يرام، مرت الأيام على هذه الوتيرة قبل أن

ينقلب كل شيء رأسًا على عقب، قبل ذلك كنا نستنشق الشرور القادمة إلى القرية، كان الخبر يردنا على جنحُ الريح عن عمليات الحرق والقتل والتفلتات التي تحدث في بعض قرى الجنوب البعيدة، فقبل فترة تم حرق أكثر من كنيسة في منطقة «شالي»، كانت الأخبار تأتينا عن الحرب التي تزيد اشتعالًا وشهوة الأطراف المقاتلة لسفك الدماء، كثير من أبناء الأنواك التحقوا بالحركة الشعبية وأصبحوا يقاتلون معها في الأحراش والغابات والجبال انتقامًا لأهلهم الذين قتلوا والقرى التي تم حرقها، وأيضًا قبل ذلك بثلاث شهور سمعنا بمجموعة من الشباب من قرى الدينكا انضموا للحركة الشعبية بعد أن تم قتل ذويهم وسرقت أبقارهم، لكن كانت قريتنا هادئة، احتفلنا بعيد الحصاد الذي يجري كل عام في أكتوبر بعد حصاد أول محصول، كان مهرجانًا كبيرًا استمر لأكثر من أسبوع، أعاد للحياة بريقها وللقرية هيبتها، عاد الناس إلى الرقص والغناء والعزف على «الوازة» بعد انقطاع طوال فترة الزراعة، فالعزف عليها محرم طول موسم الزراعة، وكل من يعزف يعاقب إما بالطرد من القبيلة أو بدفع غرامة، فبعض هطول أول غيث يقوم الشيخ بدعوة كل الناس في حفل ساهر، يتم العزف على الوازة حتى الصباح بعدها يعلن عن إغلاقها إلى نهاية موسم الزراعة. الموسيقى جزء من حياتنا، نترجم بها أحاسيسنا، نغني للفرح وللحزن، للحياة والموت، نستقبل مولودًا جديدًا بالطبول ونودع متوفي بالطبول أيضًا. في عيد الحصاد تذبح الماشية وتطهى الأطعمة ويطعم الناس، شكرًا لأرواح الأسلاف وكسبًا لودهم، عند المساء تتم دعوة الكل إلى ميدان فسيح، يخرج الجميع خائفًا ومتضامنًا مع التقاليد،

وكان لا يتخلف أحد، فعند المساء يتم رمي النار في القطاطي، فحينما يكون بداخل القطية إنسان، تقوم النار بالتهامها، وإن لم يكن هناك أحد تظل القطية سالمة، لذا يخرج الجميع خائفين، وكذلك كل من يتخلف يتم وسمه بالخروج عن تقاليد القبيلة،يرمي الناس النار وهم يصيحون.. جدعنا النار.. جدعنا الشر. بعدها يتم دق الطبول والنحاس وتعزف الوازة، وكان للوازة شيخ خاص، هو المسئول عن الموسيقى في المنطقة. يجوب الموكب شوارع القرية، دون أن يعبر من أمامه إنسان، كل من يقطع أمام الموكب يتم ضربه بالحراب.

صار عيد ذلك العام على أحسن حال، رقص الجميع على إيقاع الوازة والطبول، وعقدت العديد من الزيجات، انتهت الاحتفالات بصلاة الجميع، داعين أرواح الأسلاف أن تديم لهم الحياة الرغدة والعافية، وأن تحمي القرية من الشرور، غادر الجميع إلى بيوتهم مسرورين. حتى جاءت تلك الليلة المشئومة الفاصلة في تاريخ حياتي، كانت ليلة قاسية، تعالت فيها أصوات البنادق، وغابت فيها السكينة والهدوء، تعرضت قريتنا الهادئة والمسالمة لهجوم من قبل جماعة تضاربت الروايات حول هويتهم، الحكومة قالت بأنهم المتمردين، والمتمردون نفوا ذلك واتهموا الحكومة. المهم في تلك الليلة تغير كل شيء، ورسم القدر مسارًا جديدًا لحياتي، استيقظت على صوت قعقة الرصاص وصراخ الناس، خرجت من الكوخ ألتمس ما يجري، وكانت المأساة، رأيت حريقًا مشتعلًا في أحد الأكواخ والدخان يتصاعد منه إلى السماء، قبل أن تنتقل النار بسرعة إلى الأكواخ الأخرى، الأطفال يصرخون، والجميع يركض من هول الفاجعة، يفرون إلى الغابة ويحتمون

بالأشجار والكهوف. أناس بلا رحمة يطلقون النار بشكل عشوائي، قامت هذه القوى بمجازر بشعة، لم يرحموا شيخًا كبيرًا أو طفلًا صغيرًا، وأسروا أعدادًا كبيرة من الشباب الأقوياء الذين يستطيعون المحاربة معهم، وقتلوا كل من يرفض الانصياع لأوامرهم، قبل أن يقوموا بحرق القرية كلها بعد أن استولوا على جميع ما وجدوه من الغلال والمواشي والفتيات. عدت إلى البيت وجدت أمي تسبح في الدماء، وأخي مكبلًا جاثيًا على ركبتيه، حينما رآني طلب مني أن أهرب، لكن أمسك بي شخصان كانا يقفان خلفي، قبل أن يتناوب على اغتصابي خمسة رجال، ويذبحوا أخي أمام عيني كما تذبح الشاة من الوريد إلى الوريد، ثم تركوني غائبة عن الوعي.

في الصباح تحولت القرية إلى أكوام الرماد، قتل عدد كبير من الناس ولم يتبقَ فيها إلا عدد قليل من المسنين والأطفال والذين فروا إلى الأودية، فالشباب جميعًا تم قتلهم، الكثير من الجثث تتناثر في العراء، تفوح رائحة الجثث المشوية في أرجاء المكان، عظام آدمية محترقة تحوم حولها الصقور، كان مشهدًا مأساويًا مهيبًا، خرج من تبقى على قيد الحياة من مخبئه، خرجوا حائرين، الجميع تحاصره الحيرة ماذا يفعل، لم تستطع أرواح الأسلاف أن تفعل لنا شيئًا في ذلك اليوم، ولم تقف أمام الشر الذي ابتلع كل شيء وقضى على الحياة تمامًا.

أزاحت رياح عابرة ثوب سلامة عن رأسها، كشف عن شيب متسلل ومندس في خصلات شعرها، أعادت الطرحة إلى مكانها وأحكمتها من جديد، قلت في نفسي: لا يقاس الشيب بالعمر فقط، أحيانًا ما الشيب إلا

مرأة يطل عبرها معاناة المرء، لوحة تخبر كم حياتنا مليئة بالحزن والألم، كل خصل بيضاء هي ذكرى واقعة مفجعة أو حدث أليم مر بها المرء.

سقطت مني دمعة بغير إرادتي، حاولت أن أسيطر عليها لكن لم أستطع، نظرت إليها وهي تشيح بنظرها نحو الأفق البعيد، كأنها ترى فيه كل تفاصيل المأساة، قالت سلامة مستدركة: ما كان ينبغي أن أطلعك على هذه الأمور ولكن هذه هي الحقيقة والسر الذي تريد أن تعرفه، والذي ظللت أكتمه بداخلي سنوات طويلة. قالت مرة أخرى بعد أن جفت الدموع على مآقيها: طالما بدأت لك القصة لا بد أن أنهيها لك، قبل أن تتابع حديثها بمزيد من الوجع:

بعد ثلاثة أيام من الحادثة، زارنا وفد من المفوضية السامية لشؤون اللاجئين، وقام بنقل من تبقوا على قيد الحياة إلى معسكر للاجئين تابع للأمم المتحدة بالقرب من الكرمك عُد خصيصًا لاستقبال اللاجئين الهاربين من الحرب الأهلية المستعرة آنذاك، كان عدد اللاجئين في المعسكر يتجاوز ألفي شخص، يزيدون كل يوم، وتفد أعداد أخرى من الفارين، فالحرب في ذلك الوقت قد حمي وطيسها. بعضهم يقيم بصفة دائمة، وبعض آخر يغادر بعد أيام قليلة من مجيئه. تم تقسيمنا إلى مجموعات، كل ثلاثة أشخاص في خيمة واحدة. كانت المناظر تمزق نياط القلوب، الأمهات ثكلى وأرامل، والأطفال عراة حفاة تائهون، تبدو نقوش الجوع والمرض واضحة على أجسادهم، والشباب حائرون تتفجر براكين الحسرة بداخلهم لا حول لهم ولا قوة. مكثت في المعسكر خمسة شهور تزدحم في نفسي الحسرات، ويجرفني حزن

أليم، قبل أن أقرر مغادرة المعسكر والتواري عن الأنظار، انتابتني رغبة أن أهاجر إلى الشمال، سمعت كثيرًا عن الخرطوم وعن حياتها الرغدة والعمل الوفير فيها آنذاك، سمعت أنها تفتح أبوابها لكل طارق. في المعسكر كنت قد تعرفت على أحد العاملين في مفوضية اللاجئين يدعى حسن صديق من أبناء سنار، كان الوحيد الذي يحمل الجنسية السودانية من بين العاملين في المعسكر، فالبقية كلهم من الأجانب. كان يتولى الترجمة حينما يزور المعسكر مسئولو الأمم المتحدة، فقد كان يعمل مساعدًا طبيًا ومترجمًا في آن واحد، حكيت له بإصرار عن رغبتي في مغادرة المعسكر، كنت أتوقع أن يعترض، أو أن يرفض مساعدتي، لكنه قال بأن الحياة في الخرطوم أرحب، كل شيء وفير، فالخرطوم تستقبل المرء بالدفوف. كانت الخطة تقضي بأن أخرج عند الساعة الخامسة صباحًا ، قبل شروق الشمس متسللة، وينقلني هو بنفسه بعربة تابعة للمفوضية إلى مدخل مدينة قيسان، وقال إن لديه صديقًا يدعي صالح زروق، يعمل سائقًا لشاحنة في الدمازين، ينقل بها الفحم إلى الخرطوم، ووعدني بأن صديقه هذا سيقلني بشاحنته إلى الخرطوم. أوصاني عندما أصل إلى الدمازين أسأل عنه في السوق، فهو شخص مشهور يعرفه كل السائقين. بعد أن وصلت قمت بالبحث عنه ثلاثة أيام، لكن لم أجده، قال لي البعض إنه اختفى، ومنذ شهرين لم يره أحد. قررت أن أغادر وحدي، كنت أدخر مالًا كان قد صرفته لنا المفوضية. ركبت بص النسيان، تحرك الساعة السادسة صباحًا ولم يصل الخرطوم إلا والشمس تشارف على المغيب. الخرطوم هي معركة أخرى وكفاح آخر من أجل البقاء، على المرء أن

يتكيف مع الظروف المستجدة أو ينقرض. فهي لم تحسن ترحيبي كما ينبغي، بل استقبلتني بمتاريسها، قضيت فيها أيامًا سوداء أتمنى ألا تعود مرة أخرى. جئت إليها باحثة عن معنى لحياتي، زرعت أحلامًا جميلة لها، لكن لم أحصد سوى خيبة الأمل، فيها بدأت مسيرتي نحو المجهول.

هطلت دمعة من مقلتيها، أحسست بأنها تشعر بالاختناق، تركتها تسترجع بعض أنفاسها.

الخرطوم مدينة لم أحبها يومًا، كلما تنهض فيها بناية شاهقة، يولد في المقابل عشرات المتسولين، وكلما تنطلق رصاصة من فوهة بندقية يحملها جندي تعيس في أحراش وغابات هامش البلاد، كلما كسبت مشردًا جديدًا. إنها أكذوبة كبيرة، تحتضن جيوشًا من المشردين والمنبوذين، يعيشون بلا عزة ولا كرامة، بائسين لا مبرر لوجودهم، ينامون في العراة، وكل ناصية هي بمثابة بيت لهم، لا يكلون ولا يملون من مضايقات دوريات الشرطة التي تأتي بين الفينة والأخرى، مائدتهم براميل النفايات، يقضون حاجاتهم في الطرقات، كل شيء في حياتهم بائس وكئيب، الحياة دائما تسيء معاملتهم، تأخذ منهم ولا تعطيهم، وتنظر إليهم باستعلاء. لم تعد الخرطوم تلك المدينة الساحرة التي تلقب بزينة المدائن كما يحكي الكبار، لم تكن جميلة ونظيفة تسر الناظرين، انطفأت أنوارها المتلألئة، غابت لياليها البهية، أصبحت كامرأة مترهلة تنام خائفة مرتجفة، شوارعها متسخة، وتعيش في شغب عمراني، مزدحمة بخلق سحقتهم المعاناة، تحتضن جيوش العطالة الهاربين من جحيم الفقر، كل شيء فيها بائس. كدت أقول لسلامة بأني أيضًا قد خدعتني الخرطوم،

أحببتها قبل أن أراها، رسمت لها في ذهني صورة جميلة، ولكن تهشمت تلك الصورة حينما ساقتني قدمي إليها، إنها مدينة متناقضة في كل شيء، أحياء بائسة تبدو كمعسكرات اللجوء والنزوح، وهي كذلك، تضج بكثيرين من الذين فروا من الحرب والجوع، نزحوا إليها يعيشون في أوضاع تراجيدية مميتة، يدفعون ثمن شيء لم يقترفوه كبواب نادي القمار، لا يشارك في الربح أو الخسارة، لكن أول لكمة ستكون من نصيبه حينما يتشاجر المتقامرون، مع ذلك فهم حالمون ومتطلعون لغدٍ بعيون مضيئة، ويكفرون بوصية أمل دنقل ـ لا تحلموا بعالم سعيد، بموت كل قيصر يولد قيصر جديد. يداهمهم الفقر أينما وجلوا، يشبهون بعضهم في ملامحهم المكلومة وسحناتهم الزنجية، تربطهم علاقة مشيمية، ولا يأبهون لأوامر السلطات، يبنون بيوت عشوائية بمواد بدائية تدكها جرافات السلطات، وما إن تستيقظ إلا ووجدتها قائمة كما هي، فهم لا يعرفون اليائس، إنها معركة البقاء. ويتبادر إلى ذهنك سؤال، لماذا تحتضن هذه الأحياء البائسة المفتقرة إلى أبسط أساسيات الحياة هذه السحنات وغيرها من السحنات الفاتحة اللون تسكن أحياء راقية، فعلى الرغم من تيه البعض من سكن هذه الأحياء البائسة، إلا أن المرء يستطيع بيسر أن يجزم بزنجيتهم الضاربة في الجذور.

كان ذلك في أبريل، حينما قدمت إلى الخرطوم لأول مرة، كانت السماء صافية، لا تفسد المزاج إلا أشعة الشمس التي تجعل العرق ينهمر بلا توقف، لكن حرارة الشمس اللاهبة عند سكانها أفضل من أغسطس، شهر انهمار المطر، يجعل المطر المزاج سيئًا للغاية، تتحول الشوارع إلى برك من الماء

والطحالب، وتجعل البيوتات تتساقط واحدة تلو الأخرى لسوء التخطيط وعدم توافر المصارف الجيدة.

أخذت إبر الفضول توخزني في رأسي، انتابتني رغبة معرفة القصة كاملةً، كالذي يقرأ رواية بوليسية لا بد أن يعرف نهايتها حتى يتنفس الصعداء. مر وقت طويل على الصمت، قلت لها:

- ثم ماذا بعد؟

قالت بعد أن أخذت تنهيدة طويلة:

- هنالك أشياء من الأفضل ألا تتطلع عليها.

قلت لها:

- لكن أرى القصة لم تكتمل بعد.

قالت بنبرة ساخرة من الحياة:

حسنًا...

يا له من حظ كئيب، نحن البشر لا نمسك بمقاليد أقدارنا. وصلت إلى الخرطوم والشمس تقترب من الغروب، كان الفصل شتاء، البرد يتهاطل من السماء بلا شفقة، لا أدري إلى أين أذهب، فأنا فيها شجرة ليس لها أصل ولا جذور، كان الجوع يهاجمني بشراسة، تكاد أمعائي تتقطع من فرط المسغبة، لم أتذوق الطعام منذ الصباح، أخذت أجوب الشوارع بلا هدف حتى أصبحت خالية من المارة كمدينة الأشباح، حينما يئستُ لجأتُ إلى إحدى البنايات التي لم يكتمل إنشاؤها، ومن شدة التعب لا أتذكر متى أغمضت عيني، نمت ولم أستيقظ إلا على ألم الركل والسياط التي تهاطلت على جسدي

من قبل رجال الشرطة، اقتادوني إلى قسم الشرطة لا يبعد كثيرًا وهناك نمت نومًا هادئًا حتى الصباح، في الصباح تم استجوابي، اتهمني المتحري بالتشرد والتسول، حاولت أن أنفي التهمة عن نفسي دون جدوى، بعد أن غادر ذاك المتحري جاءني شرطي آخر في منتصف الثلاثينيات من عمره، جلس بجواري وخاطبني بكل ود، قال بأنه أحس بصدق قولي في محضر التحري، لذا قرر مساعدتي، قال إنه يعرف امرأة محسنة، يمكن أن تهتم بي حتى يصلب عودي في المدينة إن أردتُ، أبديت موافقتي بصمت، قام بالاتصال بها فورًا، ولم يمر وقت طويل حتى جاءت المرأة، كانت من هيئتها لا تشك في ثرائها، طمأنتني بأني سأكون بخير عندها، ركبتُ معها في سيارتها مطمئنة القلب، ضغطت على البنزين وهي تلوح للشرطي بالوداع، لم تتوقف إلا أمام بناية من ثلاثة طوابق، مطلية بلون رمادي، خاطبتني وهي تترجل من السيارة قائلة بأن هذا المبنى ملكها الخاص، شيدته بعد أن كدحت سنوات، قبل أن تطلب مني أن أتبعها، تبعتها بفضول، كان الباب نصف مغلق ما يدل على أن هنالك أحدًا ما بالداخل، وجدت رجلًا أشيب الرأس، وجهه مليء بالتجاعيد، يبدو أنه تجاوز الستين من العمر، لكنه يعيش حياة شاب من خلال شعره المصبوغ، يمسك بيد مرتجفة سيجارة في أنفاسها الأخيرة، من حوله فتاتان تدلكان سائر جسده برفق وإثارة، ظننت في بداية الأمر أنه زوجها، وأن هاتين الفتاتين بناته، لكن الوضع الذي كانتا تجلسان فيه جعل عقلي يرفض فكرة أن تكونا بنتيه، كانتا شبه عاريات، تفحص جسدي من أعلى رأسي إلى أسفل قدمي، وابتسامة خبث ترتسم على شفتيه، عندما مددت يدي مصافحة ضغط

يدي بقوة ولم يتركها إلا بعد أن زجرته المرأة، قال مخاطبًا المرأة: الغزالة دي اصطادتيها وين؟ ردت له إحدى الفتيات: من الغابات الاستوائية ـ قبل أن تنهي جملتها بضحكة خبيثة ـ قالوا غزلان الغابات الاستوائية لحمهم طازج. قبل أن تتدخل المرأة وتزجرها.

بدأ قلبي يخفق بشدة، فكرت بالمغادرة، إلا أن يد تلك المرأة أمسكت بي وهي ترمقني بنظرات ذات مغزى بأن الأمر عادي وألا أشتغل به، أعطتني ملابس جديدة وطلبت مني أن أدخل الحمام وآخذ دشًا وهي ستذهب لتعد الإفطار. لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، طلبت منها أن تتركني في غرفة وحدي، أحكمت إغلاق بابها من الداخل، في الصباح حينما خرجت وجدتها تجلس في الصالون وتشرب الشاي بمفردها، أشارت لي أن أنضم إليها، جلست أتفحص المكان بكل توجس، في الغرفة الأخرى كانت تنام الفتاتان ولم أجد ذاك الرجل، سألتها هل هن بناتها؟ أجابت بالنفي.

قالت:

- إنهن طالبات يعملن عندي.

سألتها مرة أخري:

- وماذا يعملن عندك؟

قالت بعد صمت:

- يعملن ليكسبن مال يعينهن على الدراسة.

حولت مجرى الحديث، لم تخبرني بعملها إلا في اليوم التالي، حينما ألححت عليها لمعرفة نوع عملها، قالت إنها قوادة وإن الدعارة هي التجارة المربحة في

هذه الأيام، اقتربت مني وهي تمسح شعري وأنا أرتجف من هول ما سمعت من فمها، قالت لي: إنك فتاة عشرينية في عمر الزهور يمكن أن تجني أموالًا كثيرة في وقت قصير. أخذت أبكي، هممت بالفرار والهروب من منزلها، لكن لم أستطع الهرب، فلم أكن أعرف أحدًا ، وليس لدي مكان آخر يمكنني الذهاب واللجوء إليه. حينما قرأت المرأة ما دار في بالي، قالت: حسنًا يمكنك أن تجلسي عدة أيام إلى أن تجدي مكانًا آخر.

هكذا بدأ كل شيء، وجدت نفسي فجأة منغمسة في عالم الدعارة، الطريق السهل والشائك في آن واحد، أمارس الدعارة لكي أعيش، كنت أعرف بأنه ينافي الدين ولا يرضى الله، وأعلم أن عقوبة الزاني والزانية مائة جلدة ولا تقبل منهم شهادة، لكن أين أذهب وأنا بلا جذور هنا، وماذا أفعل لأتخلص من فاقتي وإملاقي، ماذا تفعل حينما يلوح الجوع بسوطه في وجهك، فالحياة لا ترحم من كان ذا مسغبة. منذ تلك اللحظة أصبحت أبيع جسدي أو قل شرفي! وماذا يعني الشرف لإنسان جائع، إنه لا معنى له. كنت سهلة القيادة إلى السرير، كل ما أبتغيه هو مال يسد رمقي وتقاسمني فيه السيدة التي تدير الأمر في شقتها، أهبُ جسدي لكل من يدفع ليفعل به فعلته ثم ينهض منتشيًا والأسى يمزق قلبي، عانيت كثيرًا من قسوة رجال الخرطوم في المضاجعة، معظم الرواد هم من المتزوجين، يحبون التغيير وتجديد فراشهم ولا يكتفون بزوجاتهم، كثير منهم يقولون إن زوجاتهم مملات وباردات في المعاشرة، إنه طمع الرجال، والعين لا يملأها إلا التراب، ولكن سرعان ما يكتشفون بأني لست سوى نسخة من زوجاتهم، لا أختلف عنهن، بل ربما أبرد منهن، أمد

لهم جسدًا بلا روح، لا يجدون عندي الحب الذي يبحثون عنه، كنت لا آبه لأحد منهم حينما يحاول أن يعبر لي عن مشاعره، حتى الكلمات المعسولة التي يتفوه بها البعض في لحظة نشوة لا تجد عندي سوى الصمت ونظرات الاستخفاف، كانوا لا يكترثون لألمي، بل هم كل واحد منهم أن يقضي وطره ويتخلص من شهوته إلى حين إشعار آخر، كان معظمهم يعاشرونني بقسوة، كم هم أغبياء يظنون بأن مضاجعة امرأة بقسوة هي قمة الرجولة ودلالة على الصحة الجنسية الجيدة. كان لا يهمني ألمي، طالما أجني المال الذي يسد رمقي، فكل شيء على ما يرام، فكنت أضاجع ثلاثة أو أربعة وأحيانًا خمسة في ليلة واحدة، فأنا متعودة على مثل هذه الأمور، فقد حدثت لي مثلها في قريتي عندما اغتصبني أولئك الهمجيون. أحيانًا ترسلني المرأة إلى أحد الزبائن لأبيت عندهم وأعود عند الصباح.

كنت أصلي، ما إن أنتهي من الممارسة حتى أغتسل وأصلي، فكان الزبائن يسخرون مني ويضحكون ويقولون «شرموطة عاملة شيخة» كنت أقول إذا لم تستطع منع نفسك من المعصية فلا تحرم نفسك من ثواب الطاعة، والصلاة حق ربنا وليس له علاقة بما أفعل.

مرت الأيام ببطء على هذا المنوال حتى حدث شيء ما انتشلني من هذه المهنة، فبعد ثلاث سنوات من عملي كعاهرة، أصبت بداء يشبه داء الإيدز الذي يهدد المجتمعات الإفريقية من البقاء، وراجت شكوك في نفسي حول إصابتي بإيدز، خاصة عندما سمعت أن اللائي يمارسن الدعارة أكثر عرضة لهذا المرض، نحل جسمي، ونذرت لله إن شفيت سأترك هذه المهنة السيئة،

فهي نفق مظلم ليس له نهاية، كم يؤلمني حينما ينعتني أحد بالشرموطة، كانت نقطة سوداء في حياتي. بعد أن راجعت الطبيب اتضح بأني أعاني من التهاب في المعدة، فحمدت الله كثيرًا ، وقررت أن أوفي بنذري، سألت الله أن يمكنني من أن أوفي بنذري، واستجاب الله لصلواتي، كان من ضمن زبائني شخص يدعى «الشفيع» مات قبل خمس سنوات، كان يختلف عن غيره من الزبائن، لطيف في معاملته معي، أشعر بأنه ابن حلال ولولا أن أغواه الشيطان لما أتي بهذا الفعل، فهذه الأشياء تحدث أحيانا خارج إرادتنا وبلا وعي منا. حينما قصصت له قصتي طلبتُ منه أن يبحث لي عن عمل شريف أسترزق منه وآكل من الحلال، حكى لي بأنه يعمل سائقًا في الجامعة، ووعدني بأنه سيبحث لي عن العمل، بعد أيام أخبرني بأن الجامعة بحاجة إلى فراشات، ساعدني في تقديم طلب التوظيف، وتم تعييني بعد عدة أيام، هكذا ساقني القدر إلى جامعة الخرطوم، بعدها تركت المرأة وسكنت في الحاج يوسف، عملت في بداية الأمر كفراشة ولكن كان الأجر زهيدًا لا يكفي حتى للاحتياجات الأساسية، ففكرت أن أوسع من عملي وأبيع الشاي بعد أن ينتهي دوام العمل، هكذا صار الأمر، أنا على هذه الحال منذ ثلاثة عشر عامًا، عاصرت دفعات كثيرة، وسعيدة بتعامل الطلاب معي، كلهم يقدرونني ويحترمونني.

أردفت قائلة بعد صمت وأنا قد أطلقت حبل التفكير للخيال: كنت أعتقد بأنني سأجتاز هذه الذكريات ولن أدعها تتمدد في حياتي، لكن هيهات، الذكريات كالمشيئة الإلهية لا تقمع أبدًا. زرت قريتي بعد اتفاقية السلام الشامل أبحث عن أهلي الذين مازالوا على قيد الحياة، لكن وجدت شبح

الموت يخيم على كل القرى بعد أن هلك كل ما فيها، أصبح كثير من القرى خاليًا ينعق فيه البوم، تحولت إلى بقايا مساكن، ووجدت قريتنا قد نمت في مكانها الأعشاب والشجيرات وأحالتها إلى جزء من الغابة المجاورة، فعدت إلى الخرطوم من جديد.

دمعة شقت خديها، قالت مرة أخرى بصوت مشحون بالعاطفة: لا أدري كم تبقى من أهلي على قيد الحياة، وأين هم الآن؟ فأنا لا أعلم عنهم شيئًا منذ أن وفدتُ إلى الخرطوم.

كدت أن أقول لها أعرف أين هم الآن، إنهم حيث الحياة مجرد كلمة لا تعني شيئًا، حيث لا شيء غير الموت والجهل والفقر والمرض، إنهم يحترقون، أسمع طائرات الأنتنوف تقصفهم، أراهم يتألمون يستغيثون، إنهم حيث الحرب تحصد كل شيء بلا تمييز.

سرحت بخيالي إلى أفق بعيدة، حيث وادي العتمة، وطئت قدمي أفكاري حيث طبول الحرب تقرع، كل شيء بائس وذابل، الأشياء تتزين بكامل لباس الحزن، الطبيعة في كامل بهائها لكن طبول الحرب التي تدق تجعل كل شيء بائس، شمس الإنسانية غاربة، دخان الحرب يغطي كل سموات الحب، جماجم بشرية متناثرة، حيوانات نافقة لم يتبقَ منها سوى هياكلها العظمية، رأيت أشياء كثيرة مرعبة، أطفال عرايا وآخرون بملابس بالية، أكواخ مهجورة، بعض منها سالم والبعض الآخر محروق، وصارت رمادًا، أوراق أشجار ناشفة يتلاعب بها الهواء، جنود يساقون إلى الموت رغم أنفهم، عيونهم حمراء كدمائهم، بقايا أسلحة فتاكة، وأخرى تقليدية، دبابة

متعطلة، شاحنة عسكرية متصدعة نمت إلى جانبها أعشاب حزينة واتخذتها الطيور وكرًا لها، رصاصات نحاسية فارغة، ملابس جنود مهترئة خالية من النياشين، جنود بلاهة متعطشون للقتل، رأيت هارون أبو كديسة يخرج وسط كتيبة عسكرية ويأمر الجنود بنبرة صارمة بالمغادرة، رأيت حين أصاب زوج كلتوم قذيفة، كيف مات، وكيف ماتت ابنتها أجاك.

يوجد من حولنا الآلاف من نوع سلامة لكن قد لا نحس بهن، بل نسيء معاملتهن ونصفهن بأقبح الصفات. الفتاة لا تولد داعرة، فالحياة هي التي تحولها إلى داعرة، عاهرة، غانية، مومس ــ سميها ما شئت ــ هي شريفة في نظري، أحبها جدًا، لولا فارق العمر الذي بيني وبينها لتزوجتها، وأنجبت طفلًا أسود جميلًا مثلها ومثلي تمامًا.

لا أدري كم استغرق حديثنا من الوقت، شعرت بالإرهاق، تركت سلامة تلملم أدوات عملها وذكرياتها الأليمة التي نشرتها أمامي، عدت إلى السكن الطلابي والنهار يحزم حقائبه مودعًا، الساعة السادسة تقريبًا، فتحت الغرفة وجدتها خالية، كالعادة يأتي كوجاك ومصعب متأخرين، أغلقت الباب خلفي، الصمت يعم الأشياء جميعًا، فتحت النافذة، أري الأشياء حولي تتداعي، الصورة تقترب أكثر فأكثر، سلامة، الحرب، القتل، الجوع، أطفال يموتون كل يوم، الغام، متفجرات، غارات، يا ترى كم حصدت الحرب، مليونًا، مليونين، خمسة ملايين، عشرة، عشرين، دعك من هذا، كم عدد الذين ماتوا اليوم وحده، كم طفل يتألم من المرض، كم امرأة ترملت؟ الحروب تحول الحياة إلى شيء غير محتمل، تفقد كل شيء مضمونه، وتبدو

الحياة رحلة شاقة يقطعها المرء رغم أنفه. يقول جورج أرويل: «كل دعاية الحروب، كل الصراخ، والأكاذيب والكراهية، تأتينا على الدوام من أناس لا يقاتلون» إنهم مصابون بسعار القتل، يرتدون لبوس الرهبان ويفعلون أفعال الشيطان.

طيلة تلك الليلة، كنت مستغرقًا في التفكير، لدرجة أني لم أسمع الشجار الذي نشب بين جماعة أنصار السنة والصوفية في مسجد الداخلية، بعد صلاة العشاء حينما هم رجل صوفي أن يؤم المصلين، فمنعه رجل سلفي، فنشب شجار بين الطرفين، لم أسمع بهذا الشجار إلا بعد أن أخبرني به كوجاك في اليوم التالي. ظل طيف سلامة يرافقني في خاطري حتى الصباح. مهما كان قلب المرء صخرة صماء فإنه يتأثر في بعض الأحيان، إلا تجار الحرب، إنهم كائنات شيطانية نُزع منها العطف، قلوبهم خالية من مثقال ذرة من الرحمة، يقتلون الأبرياء ثم يحتسون الخمور المعتقة، وينامون في قصورهم هادئين وهم يبتسمون ملء فمهم، دون أن تؤنبهم ضمائرهم.

منذ أن عرفت سر سلامة اقتربت منها أكثر، وما إن أفرغ من المحاضرات إلا وأذهب إليها وأستأنس بها، نتوغل في أمور أكثر خصوصية حينما يكون المكان خاليًا من الزبائن، وعندما يأتي زبون أتركها لعملها إلى أن غادرت الخرطوم.

سقوط الأحلام

هرب الجميع من سطوة الطبيعة واستجاروا ببيوتهم الطينية الواهنة، البرق ينير العتمة بين الفينة والأخرى ثم يأتي صوت رعد ويحدث انفجار داوٍ مهيب كانفجار عظيم، خرجت من بيت زينوبة عائدًا إلى البيت غير عائباً بسياط المطر المنهمر فوق جسدي ـ انقلبت سطوة الرغبة على سطوة الطبيعة ـ كثيرًا ما زجرتني زينوبة حينما آتي إليها مبللًا، لكن لا آبه فللنشوة سلطتها، نمت دون أن أخلع حذائي، كان ليلًا هادئًا دون أحلام وكوابيس، استيقظت ككل يوم على ضوء سياط أشعة الشمس المتسللة عبر نافذة الغرفة ولا أدري كم الوقت بالتحديد، فقدت الإحساس بالزمن منذ فترة كأنني متُ إكلينكيًا، تعاقب الليل والنهار لا يعني لي سوى آية كونية. ما إن هممت بالنهوض حتى سمعت «زبيدة باتي» تصيح لأمي بصوت مختنق مريع، لم تثر اهتمامي، أعرف أنها لا تحمل سوى خبرًا لا معنى له في قاموس حياتي، فهي مشهورة بنقل الأخبار و«الشمارات»، قالت بذات الصوت المختنق المريع وهي تلتقط أنفاسها المتقطعة: إن نبي الله الخضر ظهر في الحي الجنوبي. ثم هرولت دون أن تضيف شيئًا آخر ودخلت على جارتنا لتذيع لها الخبر العاجل. ما إن تحدث حادثة إلا وعمت جميع أحياء القرية الأربعة، ينتشر الخبر مسرعًا كحريق شب في غابة أثناء هبوب الرياح، و«زبيدة باتي»

تعتبر مثل الرياح التي تنقل النار من جذع لآخر بسرعة ودقة، كانت لها طريقتها الخاصة في إذاعة الأخبار، حينما تذيعها كانت تقف ويداها على خصرها، وتتحدث دون إطناب أو مقدمة، تدخل في الموضوع مباشرة، وتستعمل كل جسدها في توصيل الخبر، ثم تطلق ساقها للرياح دون أن تلوح بالوداع. لكن لأول مرة تثيرني أخبارها، انتابتني رغبة أن أرى وأتقصى من أمر هذا الرجل النبي، فقد سمعت عنه قصصًا كثيرة، ولم أره ولو لمرة واحدة، طوال حياتي كنت متشوقًا لرؤيته، يقال إنه أينما ظهر يجلب معه الخير ويداوي المرضى ويمنح الشفاء من كل داء، الجميع يؤمن بقدراته، ويقال أيضًا لا يراه إلا من أوتي حظًا عظيمًا وصلح عمله، ومن القصص يقال بأن هنالك رجلًا في قرية ما، كانت غاية أمنيته أن يرى نبي الله الخضر، فذهب إلى رجل تقي يحسب من أولياء الله الصالحين، وحينما أخبره بأمنيته طلب منه الرجل الصالح أن يملأ كل يوم ولمدة ثلاثة أيام، أزيار سبيل في طرف القرية تبعد كثيرًا من النهر، وأن يخلص نيته في هذا الفعل، ووعده الرجل الصالح بأنه سيرى نبي الله الخضر في اليوم الثالث، وأوصاه بأن يطلب ما يشاء حينما يلتقي به وسيحقق له ذلك، فأخذ الرجل يفعل بكل همة وعزيمة، يأخذ الماء بجرة من النهر ويذهب به إلى الأزيار في طرف القرية، حتى جاء اليوم الثالث فبعد أن ملأ جرته وهم بالذهاب أتى إليه رجل عجوز، أشعس أغبر، رث الثياب، طلب منه أن يعطيه ماء من جرته ليشرب، فاشتاط غضبًا وقال ناهرًا الرجل العجوز: أما ترى النهر أمامك، فلا تضيع زمني أريد أن أرى نبي الله الخضر، وبعد أن غادر وابتعد قليلًا

صاح له الرجل العجوز قائلًا: أنا نبي الله الخضر، فوقع الرجل مغشيًا عليه.

سمعت قصصًا كثيرة من هذا القبيل، كنت لا أهتم بها وأرميها في سلة الخرافة، لكن في هذه المرة انتابتني رغبة أن أرى هذا النبي، ربما يملك عصا سحرية تخرجني من عتمتي السحيقة، استبدلت ملابس الأمس المتسخة وارتديت أخرى نظيفة، تحركت مسرعًا صوب الحي الجنوبي. في الطريق أخذت أفكر ماذا أطلب منه أن يحققه لي، آلاف الأسئلة تهاطلت على ذهني، هل أطلب منه أن يمنُ علي بوظيفة مرموقة بعد سنين طويلة من العطالة، يجعل والدي يمنحني صكوك الغفران، أم أطلب منه أن يدعو الله لي أن يخرجني من هذا البلد اللعين الطارد أبناءه، كما خرج معظم من أعرفهم بعد أن ركلتُ كل فرص الاغتراب والهجرة التي وجدتها من قبل.

وحينما وصلت وجدت صفوفًا طويلة ملتوية من الواقفين، يفوق عددهم المائتين، فالمرء لا يستطيع عدهم من نظرة واحدة، جل سكان القرية حاضرون هنا، بمختلف عاهاتهم وأحلامهم المرجوة، ينتظر كل منهم دوره ليدخل وينال بركة هذا النبي العظيم، تعجبت حينما وجدتُ هارون أبو كديسة بزيه العسكري ينظم الدخول ـ على الرغم من أنه ترك خدمة الجيش إلا أنه يعيش حياة الجندية بكامل تفاصيلها ـ ويأخذ من الناس ثمن تذكرة الدخول، كل من لم يدفع لا يسمح له بالدخول، يوزع الفرص بالعدل، وأحيانًا بدون عدل، يُدخل بعض الحسناوات دون أن يقفن في الصف غير آبه بصيحات الاستهجان، فهو الأجدر بهذه المهمة، فالجميع يخشونه ويرتعبون من مجرد سماع صوته فقط ويطيعونه مكرهين،

يخافون منه فهو «عسكري جيش لايوق» كما يقول الناس، انتظرت حتى جاء دوري واللهفة تكاد تفتك بي والخدر يسري في أخمص قدمي من طول الوقوف. حينما دخلت كان شابًا فاتح البشرة، معتدل القامة ممتلئًا، يرتدي جلابية تشادية وطاقية خضراء، يجلس في مقعد وثير، ورأسه منكس، حاولت أن أتفحص ملامح وجهه بدقة، لكن رأسه المنحني لا يتيح لي الفرصة أن أفعل ذلك.

قلت بحماس: أريد منك أن تقيم ثورة يقودها المحبطون والبائسون تحول حياة سارقي أحلامهم الجميلة إلى الجحيم. لا أدري من أين نبت لي هذا الحماس الثوري، وقد قضيتُ طيلة حياتي دون أن أمارس السياسة، ولم تتملكني روح الثورة إلا مرة واحدة، عندما وجدت نفسي مدفوعًا ذات يوم على نحو لا إرادي إلى تمزيق إعلان في إحدى لوحات الإعلان في الجامعة، فيه أمر صارم بعدم لبس الزي الإفريقي في الجامعة، اعتبرت الإعلان مهينًا فمزقته.

لم يستطع إخفاء الاضطراب الذي بدا في وجهه حينما رفع رأسه ورآني، أنا أيضًا اضطربت حينما رأيت وجهه بدقة، حاول استجماع أفكاره ويخفي اضطرابه، قال متلعثمًا:

- هذا ليس مما أتيتُ من العلم.

خرجت مني ضحكة حاولت أن أكتمها، لكنها خرجت دون إذن مني.

إنه «سفيان البدري» بكل تفاصيله، كان طالبًا في كلية العلوم، مشهودًا له بالنبوغ في العلم والسياسة، فهو أول دفعته في كل شيء حتى في الحب، ليس

هناك أحد في الجامعة من لم يسمع بقصته. فقد كان يحب «خالدة فاروق» أجمل فتاة في الكلية، قبل أن يكتب نهايته بيده، حينما قتلها، كان حديث الرأي العام في ذلك الوقت، تصدرت صورته الصفحات الأولى للصحف لعدة أيام، ونقلت محاكمته لحظة بلحظة. والناس هنا لو يقرؤون الصحف لما وقعوا في فخه، لاكتشفوا نبوته الكاذبة منذ الوهلة الأولى.

تذكرت أول مرة رأيته فيها، كانت الجامعة في تلك الأيام جوقة من الصراخ والأصوات العالية، شعارات وملصقات تملأ أركانها، اتهامات متبادلة ونقاش حاد يدور في شارع المين العتيق، على امتداد البصر ترى أركان نقاش تدور بين أحزاب متنافرة، تسمع أصواتًا صاخبة، يأتيك صوت متحدث الجبهة الديمقراطية:

- نحن ندين تجار الدين.

يرد متحدث التيار الإسلامي في الركن الآخر:

- نحن ندوس عملاء الروس وندين أنصار لينين.
- الخرطوم ليست مكة.
- الخرطوم ليست باريس.

يصير النقاش بوتيرة حامية، تتحول أحيانًا إلى مناوشات بالأيادي. في تلك اللحظة كنت في طريقي إلى محاضرة الثانية ظهرًا، شدني صوت متحدث في ركن نقاش بالقرب من إكزام هول، من الملصق المعلق في الكرسي وسط الركن عرفت بأن الركن للتيار الإسلامي، كان المتحدث لبق يعرفه كل السياسيين في الجامعة على الرغم من أنه طالب في جامعة

أخرى، كان طويل القامة، أسود اللون، ذا صوت جهور، وقفت راخيًا أذني قال وهو يرفع قطعة ملابس نسائية ويريها للطلاب:

بالأمس وجدنا هذه الملابس الداخلية في مكتب رابطة كلية العلوم التي تسيطر عليه الجبهة الديمقراطية. ثم أخذ يكيل أرتالًا من الشتائم على الحزب الشيوعي، متهمًا أعضاءه بنشر الفساد الأخلاقي وأنهم لا ينشطون سوى في مؤخرات النساء والجنس. بعد أن فتح فرص النقاش، رفع سفيان البدري يده طالبًا المداخلة، سمح ضابط الركن بالدخول، دخل وهو يردد شعرًا لحميد، حدق بعيون ساخرة إلى الطلاب المتحلقين حول الركن وسألهم بعد أن طرد هواء ساخنًا كان يملء رئته:

• هل تصدقون هذا الهراء الذي قاله؟ إنهم قوم أدمنو الكذب، صار الغش والخداع من شيمهم، منذ تسلقهم قهرًا إلى السلطة، انقلابهم العسكري كان كذبة كبيرة، أوهمو الشعب بالإنقاذ، لكن ياليت لم ينقذوهم، أصبح السودان يتذيل الدول في كل شيء جميل، حتى شيخهم العقل المدبر سجنوه ليكملوا سيناريو الكذب.

صمت لثوانٍ، نظر إلى عيون الطلاب التواقة لسماع المزيد، قال وهو يشير إلى متحدث التيار الإسلامي:

• أقسم بأنكم لم تجدوا ملابس نسائية داخلية في مكتب رابطة كلية العلوم، هذا كذب وافترى من خيالكم المريض.

أخذ جرعة ماء من قارورة موضوعة في وسط الركن، وواصل الحديث:

• إن الملابس الداخلية التي عرضتها إما أنك تكذب أو قد تكون

لأخواتكم في الحزب، لأن الزميلات اليساريات لا يلبسن ملابس داخلية، وأنا أميل إلى الفرضية التي تقول بأنها للإسلاميات.

تحول الركن إلى حرج ومرج، كاد طالب إسلامي متعصب أن يعتدي علي سفيان البدري لولا تدخل بعض الطلاب من المعارضة وأبعدوه من الركن.

أوقفت سيل الذكريات، ناديته باسمه فزاد اضطرابه، وقلت له: عرفت من تكون، هب واقفًا من مقعده الوثير وأمسك بيدي مصافحًا وراجيًا أن أكتم سره، دعوته لزيارتي، وافق على الفور بعد تهديدي له بإفشاء أمر نبوته المزعومة للملأ.

قلت له مهددًا:

• إن لم تأتِ سأفشي سرك وسأخبر الطغام من الخلق التي ترابط بالمكان بأنك نبي كاذب تحتالهم، وحينها سيوسعونك ضربًا لا طاقة لك به، وسيقتصون حقهم بأيديهم فهؤلاء القوم لا يؤمنون بالسجن، حينما يحتالهم شخص ما سيصبحون الخصم والحكم معًا.

ودعته بعد أن وعدني بالزيارة في البيت، بعد أن يفرغ من مقابلة هذا الحشد المترامي المنتظر في الخارج، وقد فعل. طرق باب بيتنا عند المساء بعد أن جمع مبلغًا لا بأس به لا يستطيع أن يجمعه أغني تاجر في القرية لشهر كامل، رحبت به، بل رحبت به أسرتي إن أردت الحقيقة، قبل أن تنطلق في الصباح إشاعة بأن نبي الله الخضر صديقي، وأنه قد زارني ليلة أمس، صار الناس يتحدثون بهذا الخبر، أصبحتُ حديث النسوة في جلسات القهوة،

والرجال في المساجد والسوق، الجميع يلوك اسمي وتحولتُ إلى شخصية محبوبة يطلب الجميع ودها بعد أن كان الجميع ينعتني بالعربيد. هذا لا يثير دهشتي، الناس هنا يصدقون كل شيء متعلق بالخرافات، أتذكر قبل عدة أعوام، جاء رجل غريب إلى القرية، ووزع ورقة يطلب من النساء وضع الحناء في أرجل بناتهن، ويتوعد بأن من لم تفعل ستموت كل أسرتها بعد أسبوع من قراءة الورقة، تسارعت النسوة في وضع الحناء في أرجل بناتهن، مما أدى إلى ارتفاع سعر الحناء، وفيما بعد اكتشف أمر الذي وزع الورقة بأنه تاجر حناء، أراد أن يبيع بضاعته الكاسدة. هكذا هم يلدغون من نفس الجحر مرات ومرات.

منذ أن تركته وعدت إلى البيت ظلت أسئلة كثيرة تدك حصون عقلي. كيف تحول هذا الطالب النابغ ذو المبادئ التى يؤمن بها حد التقديس إلى نبي مزيف كاذب؟ لماذا قتل حبيبته وكيف خرج من السجن؟ لم أستطع أن أواجه هذه الأسئلة المتلاطمة في رأسي، فسألته دون تردد.

قال، ودخان الحسرة يتصاعد من كلماته: سأحكي لك كيف حدث كل شيء بالتفصيل. كانت فتاة وديعة خجولة تتحاشى حتى النظر في وجهي، حينما أحاول أن أهدم حاجز الخجل في قلبها وأقول لها كلامًا معسولًا، ترد لي دون أن تكلف نفسها عناء النظر في عيني، تكتفي بجملة واحدة: أشكرك. لم ألقِ إليها في بادئ الأمر كثير اهتمام، على الرغم من الاهتمام الخاص الذي تظهره تجاهي، كنت شديد الزهد في الحب، متقشفًا عاطفيًا كما يقول أصدقائي، لا أريد التورط في معركة الحب، لكن كنت حينما

أكون معها أحس بشيء من السعادة والراحة الغامرة، كان الأمر يسير على نحو لا إرادي، وومضة الحب تشع وتتسع بداخلي، لكن دون أن أبوح لها بمشاعري، حتى جاء ذلك اليوم، كنت في السمستر الثالث، كان الصباح استثنائيًا والطبيعة في أعظم تجلياتها، كنت أجلس في «اندرلاب» بالقرب من معمل كيمياء وأقرأ رواية «كائن لا يحتمل خفته» لميلان كونديرا، كنت دائمًا أقضي وقت الصباح بالقراءة الفكرية والأدبية، أهرب من رتيب الأكاديميات المملة، نادرًا ما أقرأ شيئًا له علاقة بالمقررات الدراسية، فحينما تأتي الامتحانات كنت أقرأها بغير لذة وضجر، كان زملائي يتعجبون كيف أحرز الدرجات العالية وأنا لا أقرأ هذه المقررات المملة، كانت تنتابني رغبة جامحة في الغوص في بحور المعرفة، أقرأ بنهم، أجد متعة في ذلك، أشعر برغبة التهام كل الكتب الموجودة في أرفف مكتبات الجامعة، أتحسر حينما أري الكتب الثمينة المهجورة قد بنت فيها العناكيب بيوتاتها. جاءت «خالدة فاروق» حزينة، لأول مرة أراها حزينة هكذا، سحابة من الحزن تغطي وجهها، دمها يجري في شرايينها بعنف، وفي صوتها رنة من الحزن حينما خاطبتني قائلة:

- لماذا لم تخبرني بأنك تحب رؤي شعيب.
- من أخبرك بذلك.
- قالت إنها تحبك، وأنت تبادلها الحب أيضًا.

انشرح قلبي حين عرفت ما الذي جعلها غاضبة وحزينة هكذا، قلت بعد صمت:

• أنا لا أحبها فهي تكذب عليكِ، ربما تغير من علاقتنا.

زفرت زفرة قوية وتنفست سعيدة ثم فتحت ذراعيها وحضنتني بقوة، وقبلتني بملء فيها، وقالت بشجاعة طفولية وهي تقاوم الابتسامة المرتسمة في شفتيها العنابيتين:

• أحبك.

فضحتني مشاعري دون أن أتنبه، قلت لها دون تفكير:

• أنا أيضًا أحبك.

وهل يعمل العقل في الحب، ففي الحب يتعطل كل شيء له علاقة بالعقل والمنطق، فلو أحد استخدم عقله لما أحب يومًا. المهم اعترفت لها في ذلك اليوم بأني لا أحب فتاة سواها. هكذا دشنا الحب وأطلقنا كرنفالات العشق، مضت الأيام.. أحس بأن للحياة طعمًا خاصًا، في كل صباح تشرق شمسان، شمس الكون التي تشرق للناس جميعًا ولا تعني لي شيئًا سوى أنها آية كونية، وشمسها التي تنير عتمة قلبي، كانت شمس دنياي حقًا، ومحور وجودي، وكل شيء في حياتي يدور حولها، أقول لها في الصباح أشرقت الشمس، وهي ترد بدلال: طلع البدر علينا. نلتقي كل يوم ولا نفترق حتى المساء، وقبل أن تودعني تطلب مني أن أقسم لها بأني لا أنظر إلى فتاة غيرها ولا أقيم علاقة مع أي واحدة من زميلاتي، لا تتركني حتى أقسم لها بأني سأفعل.

حبي لها لم يكن نزوة أو شهوة، إنما حب صادق، تمنيتها أن تكون معي إلى الأبد، أن نموت في لحظة واحدة وأن ندفن في قبر واحد ونبعث معًا

ونخلد في جنة واحدة. كنت أرى في عيونها كل الأشياء الجميلة التي أتمناها، بل أشعر بأني لم أخلق إلا لها، وهي لم تخلق إلا لي، أهدتني تمثالًا في شكل وحيد القرن، كنت أحمله أينما أذهب، حتى عندما أزور أهلي أحمله معي قبل أن أحمل حقائبي، كان التمثال رمزًا لها، كلما أشعر بمرارة الحياة أخرجه وأحضنه وأستنشق منه عطرها ورقتها وعذوبتها، كان له سحر قوي يذهب حزني، قالت لي عندما أهدتني التمثال: حينما ترى أي فتاة غطي به وجهك. تأخذ مني التمثال كل يوم وتضمه إلى صدرها ثم تسترجعه لي حتى يتجدد عطر حبنا كما تقول. إنها فتاة جميلة في كل شيء، حتى دموعها تزيدها جمالًا ، كنت أرسم في مخيلتي بدموعها لوحة جميلة، أتذكر كم بدت لي فتاة ملائكية حينما كنا نشاهد فيلمًا في المعهد الفرنسي أيام مهرجان الفيلم الأوربي، كان يعرض في ذلك اليوم فيلم «هنري دونان» وهو فيلم يوثق لمؤسس الصليب الأحمر في العالم، السويسري هنري دونان أول من نال جائزة نوبل للسلام، وحينما وصلت أحداث الفيلم إلى معركة «سولفرينو » في «لومبارديا» بكت بكاء شديدًا حتى انتبه لبكائها معظم المشاهدين، عندما انتهي الفيلم قالت إنه ذكرها بوالدها الذي يعمل في الصليب الأحمر الدولي في مناطق النزاعات والحروب.

كانت تجهش بالبكاء في مرات كثيرة حتي عندما أمازحها. قلت لها في ذات مرة:

• بعد زواجنا بعامين سأتزوج امرأة أخرى.

حينها تبددت ملامحها المرحة، واحمر وجهها، وأصبحت قسماتها

الصافية عكرة كالنيل الأزرق في شهر أغسطس، أمسكت يدي بقوة وقالت بصرامة:

•أنت لي وحدي لا يشاركني فيك أحد إلى الأبد.

قلت لها:

• أنفذ وصية جدي فقط، فجدي يقول بأن الرجل إذا أراد أن يصبح ملكًا فعليه أن يتزوج بأكثر من امرأة، حينها كل واحدة منهن تتنافس على إرضائه لتتقرب منه منزلة وتفوز بصكوك وده.

قالت:

• حينها سأقتلك وأقتل نفسي.

تاهت في أفكار الكآبة وقالت بنبرة قتلت شهية مزاحي وجعلتني أنزل من عرش عدم الجدية:

• إحساس مرعب أن تنام المرأة الليل وحيدة تقلب دفاتر أنوثتها، وزوجها في حضن امرأة لعينة أخرى، حينها سيبذر عقلها مليون بذرة سؤال، هل قصرت في حقه حتى يعاقبها بأشد أنواع العقوبات ويتزوج امرأة أخرى، ماذا يقول الناس عنها، شعور مرعب حقًا.

صارت الأمور على ما يرام، كل يوم أكثر بهاء من الذي سبق، لكن كل شيء تبدد في لحظة. نحن البشر تائهون نشيد أحلامنا سنين ثم تنهار في لحظة، ولا نفهم الدروس إلا بعد فوات الأوان.

كدتُ أنفجر غضبًا حينما قطعت أختي بث الحديث، وهي تضع أمامنا كوبين من الشاي، كنتُ تائهًا في صراط الذكريات المستقيم أتوغل في غابة

الحيرة الاستوائية، فأن لست وحدي أجرجر العتمة، عندما خرجت أختي قال لي سفيان بدري مازحًا:

- كم تريد من المهر حتى تصير أختك زوجتي؟

قلت له:

- نحن لا نزوج بناتنا أنبياء كذبة.

ابتسامة يتيمة انسلت من عمق الوجع قبل أن يتوقف عن الحديث بغتة كأنه تذكر شيئًا ما، نظر إلى قارورة العرقي القابعة في المنضدة والتي أصبحت هي والنهر أوفى صديقين منذ أن عدت إلى القرية، أشربها أحيانا في بيت زينوبة، وآخذها معي مرات إلى البيت ترافقني في حزني حتى الصباح، كنت قد عرجت إلى زينوبة قبل أن أعود إلى البيت بعد أن التقيت به. أمسك بها وأرتشف ما تبقي من سائلها، ثم أشار إليها وقال:

هذه الزجاجة تذكرني بالأيام الجميلة التي عشتها في خضم الفقر، نعم أيام جميلة، بالرغم من أن العيش في الفقر مخاطرة كبرى، مثل أن تعشق امرأة برجوازية تمامًا. أنا أعرف ما معنى الفقر، فقد دخلت الحياة عبر أضيق أزقتها حيث يفوح الفقر، فلو كان الفقر امرأة لما تزوجها أحد، ولعاشت أبد الدهر عذراء. لم أرث من والدي شيئًا سوى الفقر، كنت أعمل منذ أن كنت صغيرًا. في الثانية عشرة من عمري، مرض والدي مرضًا شديدًا ألزمه السرير لفترة طويلة، وكنت حينها طالبًا في مرحلة الأساس، وحينما رأيت سوء حالنا، توليت دور كبير الأسرة، أصبحت أزاوج بين العمل والدراسة، أدرس بالصباح وبعد الظهر أذهب إلى السوق وأعمل في أي

مهنة توفر لي مالًا أساعد به أسرتي، وفي العطلات كنت أتفرغ تمامًا للعمل، بينما يستمتع أقراني بالإجازة في مرح ولعب.

صمت برهة وهو يتأمل سقف الغرفة العامر بخيوط العنكبوت قبل أن يقول: لست نادمًا على أنني ولدت في بيت تفوح منه رائحة الفقر، هذه ليست خطيئة، الخطيئة أن تظل كما ولدت فُقيرًا. صمت مرة أخرى قبل أن يضيف: ذات يوم بينما أجلس مع والدي في مائدة الطعام، أجهش والدي بالبكاء، فسألته لماذا تبكي؟ فقال لي لم أتخيل في حياتي أن يأتي يومًا ما أكون طريح الفراش ليعولني ولدي. هذه الجملة جعلتني أشاركه البكاء، أضاف: يا بني لا تغلط مثلي وتضع صورة مثالية في الحياة، فالأيام دول، إن سرتك يومًا، أبكتك أيامًا، والأحوال تتبدل دائمًا من حال إلى حال، لذا لا بد أن تستعد جيدًا لكل ما هو آت، لا تهتم بالماضي كثيرًا فالماضي شيء لا يعاد، اجعل للحياة هدفًا، فالحياة مبدأ، من أراد أن يحيا فليبحث عن مبدأه، فالحياة بدون مبدأ هباء، لا تنظر للابتسامة، فوراء كل ابتسامة زيف، وختم حديثه قائلًا: كن رجلًا. كانت هذه الكلمات كافية بأن تجعلني أجتهد وأرصف طريقي، على الرغم من أنني كنت أزاوج بين الدراسة والعمل، كنت طالبًا فذ يشير إليّ جميع المعلمين وزملائي بالنبوغ، كنت الوحيد الذي يفلح في حل جميع الأمثلة الرياضية المستعصية على زملائي، كل المعلمين يتحولون إلى هيئة دفاع حينما يريد أحدهم معاقبتي.. هكذا صار كل شيء، أحرزت درجة كبيرة أهلتني للالتحاق بجامعة الخرطوم، الأمنية التي راودتني منذ صغري، في بداية الأمر لم أضع الحب في سلم

أولوياتي، لكن الحب مجرة تجذب الجميع نحوها، كلما اقتربوا منها، بعدت عنهم، ينبض القلب برهة ثم يتقطر دمًا، يشعل عواطفنا لفترة ثم يقتلها مئات المرات، يصنع لنا سعادة مؤقتة وحزنًا دائمًا. والحب لا يكون كريمًا في كثير من الأحيان، لا يهب غير الفراق، وللفراق أوجاع لا يعلم بها إلا من عاشه، يجعل الموت أسمى الغايات، يشاء لنا القدر الفراق لكن لا يشاء لنا النسيان، يظل الذين غرسوا سهام حبهم فينا كالنقوش على الأحجار، ذكرياتهم تصمد إلى وقت طويل، كلما تهب رياح الذكريات تنفض الغبار على ركام الذاكرة ليطل الوجع من جديد.

مضت أيام وشهور عامرة بالحب والنقاء، حتى بدأت أحس بجفاء وتعامل غريب لم آلفه منها منذ أن عرفتها، لم تعد تلك الأنثى المدهشة التي تحرق كلماتها قلبي، أخذت رياح الظنون تهب في قلبي، وبدأت ظلال الشك تحوم في رأسي، أصبحت أفكاري تتلاطم في بحر الشك، ويتخبط مزاجي حيرة، أحسست بأنى أعيش في أضغاث أحلام وليس في حلم يرجى تحقيقه، لم أستطع فك طلاسم تغيرها المفاجئ، أخذ الشك يعتريني ويلازمني في كل لحظاتي، حتى جاء ذلك اليوم، وجدتها تجلس مع شاب لم ألتقِ به من قبل، كانت بشرته الناعمة تجعلك تجزم بكل يسر بأنه من قاطني أحياء الخرطوم الراقية، وحينما واجهتها بشكوكي قالت لي بأنه مجرد صديق، ولكن لم أصدقها. منذ ذلك اليوم بدأت علاقتنا تأخذ منحى آخر، توتر، قلق، قلت اللقاءات بيننا، أصبحنا لا نلتقي إلا مرة واحدة في الأسبوع، أدخل الجامعة وليس لدي رغبة في شيء، أجلس لوحدي، أحيانًا

أحبس نفسي في السكن الطلابي دون أن أخرج.

هذه ليست خالدة فاروق التي خلدتها في قلبي، حاولت أن أجد لها ألف عذر ومبرر، حدثتني نفسي بأنه ربما أكون قد أخطأت في حقها، حاولت أن أتصل بها لكي أعتذر لها، لكن كان هاتفها مغلقًا، ومضت في رأسي فكرة أن أذهب إلى الجامعة وأقابلها، في اليوم الثاني بحثت عنها في كل الأماكن المحتملة، في كافيتريا العلوم وفي أندرلاب حتى في المكان الذي التقينا فيه أول مرة عند «كروس شارع المين»، ربما يكون المكان مناسبًا لولادة العلاقة من جديد، لكن لم أجدها، تذكرت بأن لديها محاضرة في هذا التوقيت، تحركت نحو القاعة، وبالفعل وجدتها تتجاذب الحديث مع صديقاتها، طلبت منها أن أتحدث معها على انفراد، رفضت في بداية الأمر قبل أن توافق حينما رأت إصراري، قالت دون بصيص من المشاعر:

- كنت من البداية أعتقد بأن العلاقة بيننا مجرد صداقة وزمالة، وما كنت أعتقد بأن العلاقة ستتطور إلى هذا الحد.

اشتعلت نيران الغضب في داخلي، قلت لها:

- أتريدين أن تمزقي الصورة الجميلة التي رسمناها منذ اللقاءات الأولي، ألا كنت تقولين بأنك تريدين أن يكون لدينا بيت وأطفال، هل كل هذا تحول إلى مجرد صداقة في لحظة، وكل ما تقولينه أصبح كذبًا وخداعًا؟

مرة أخرى ضربت بكرامة مشاعري عرض الحائط وقالت:

- أصبحت عندي ماضي والماضي لا يعاد، ولا تفكر في بعد الآن.

تمنيت في تلك اللحظة أن تنشق الأرض وتبتلعني، أسودت الدنيا أمام عيني، أطبق الظلام على كل ما حولي، شعرت بصداع شديد يفتك برأسي، عدت إلى السكن الطلابي، لم أخرج منه إلا بعد عشرة أيام.

كل شيء كالحلم الجميل تلاشى في لحظة الاستيقاظ، تحولت السعادة الغامرة إلى بحيرة من حزن. ذبلت براعم أمنياتي دون أن تتفتح، قتلتني بسكين خيانتها، ضحيت بكل شيء من أجل حبها، أنفقت أحاسيس كثيرة لأشترى سنتمترات في قلبها، لكن كانت الحصيلة واديًا يفيض بالألم، لم أفكر يومًا بأن هذه الإنسانة الرقيقة يمكن أن تتحول إلى كل هذه النتانة، لم أستطع تحمل رؤية أحلامي تتساقط، تدهورت صحتي النفسية، لم أعد كما كنت، أصبحت تائهًا ومتوترًا ، وهن جسدي كأني مصاب بداء عضال، لم تفلح خطب ووصايا أصدقائي فى إعادة حياتي إلى نصابها الطبيعي، حتى الطبيب النفسي الذي زرته بعد إلحاح من أصدقائي لم يستطع أن يعيد التوازن إلى حياتي، تحول قلبي المفعم بالحب إلى كراهية، تحول الحب إلى انتقام، بعد أن كانت المشاعر النبيلة تفيض طهرًا في مساحات حب مدهش، عزف الشيطان معازفه في رأسي وأصبحت أكثر رغبة في سفك الدماء، وصلت الكراهية إلى قمة تلها، بدأت تراودني فكرة أن أقتلها، إنها إنسانة غدارة وخائنة يجب أن تموت، لا أسمح لرجل أن يلمسها، لا يستحقها أحد غيري، أنا أحق بها، لا يمكنها أن تطوي سنوات عشقنا هكذا.

غبت عدة أيام من الجامعة وأغلقت هاتفي، وكنت أسد كل الأبواب أمام أصدقائي الذين يريدون أن يشاركونني الحزن بالخطب والوصايا

الموعظة، لم أسمح لأحد أن يعدل من تفكيري، تركني جميع أصدقائي بعد أن اصطدموا بتعنتي وصلابتي، في كل لحظة يزداد غضبي وأفكر في تنفيذ ما يدور في عقلي بلا تراجع أو استسلام، في ذلك اليوم، خرجت من السكن الطلابي قاصدًا الكلية وأنا أخفي أداة جريمتي، ومتخفيًا من عيون معارفي حتي لا يوقفني أحد أو يصافحني ويكشف مخططي، وجدتها تتبادل الضحكات مع صديقاتها كعصفورة وهي لا تدري بأن تلك الضحكات آخر ضحكات لها في الحياة، سددت لها عدة طعنات لا أتذكر عددها، لكنها كانت كافية لجعلها تنهار، وتجعل جسدها الذي ينبض بالحياة يتحول إلى جثة هامدة في لحظات، أدمعت عيناي حينما رأيت جسدها محمولًا على كتف أحد الطلاب، نعم قتلتها بيدي، لكن لم تكن دموعي دموع التماسيح، إنما دموع صادقة خرجت من قلب كان مفعمًا بالحب والإخلاص والتضحية، قد أخذت جزاءها تلك الخائنة القاسية القلب، تم اقتيادي من قبل الحرس الجامعي إلى قسم الشرطة، وهناك قبعت في السجن سنة كاملة أنتظر مصيري حتى حكمت علي بالبراءة، فكما جاء في شهادة الطبيب النفسي الذي عاودته آخر مرة بإصرار من أصدقائي بأني مريض عقليًا، كنت أتمنى أن يلف حول عنقي حبل المشنقة فليس هنالك شيء يستحق أن أحيا من أجله. بعد أن تم الإفراج عني، فصلت من الجامعة، عدت إلى أهلي، وجدت كل شيء تغير وتبدل، والدتي لم تستطع تحمل الصدمة، فماتت، تبقى والدي وحده وهو أيضًا طريح فراش المرض.

أينما أحل تطاردني نظرات الريبة والاشمئزاز، الكل يعتقد بأنني مجنون

بالفعل، في الأيام الأولى أجدت دور المجنون ومثلته خير تمثيل، تحول كل شيء ضدي، وضاع مني كل شيء ذي قيمة، أحسست أن الحياة أغلقت أمامي كل أبواب السعادة وفتح لي باب الحزن على مصراعيه، لكن قررت أن أشق طريقي وأصنع مجدي من جديد، فما حدث لي لم يمنحني خيبة فقط، بل علمني كيف أعيش وانتصر، في البداية بحثت عن عمل أسترزق منه، لكن كمن يبحث عن إبرة صغيرة في كومة قش، حتى نمت في رأسي فكرة أن أستغل هذه الأدمغة المتسخة والمتفسخة بالجهل، وتصدق كل شيء، هكذا منذ عامين أجوب القرى وأختار الأهداف والأماكن بدقة، أغشهم بضلالاتي، أكسب منهم مبلغًا من المال ثم أنتقل إلى هدف آخر فالمجتمعات الجاهلة غلف لها كل شيء بالدين، ستتبعك حتى لو كنت شيطان كما قال سقراط.

سادت لحظات مشوبة بالصمت، أخذ ينظر إلي المصباح الذي يضيء الغرفة قبل أن يقول: العالم ليس مكانًا مضيئًا بل مكانًا للعتمة، ما إن تضيء مصابيح الأمل حتي تخيم العتمة على كل شيء، لكن لا بد للمرء أن يعزف على وتر اليأس أجمل أمنية! أردف قائلًا بوجه مشع: الماضي أصبح خارج دائرة اهتمامي الآن، أصبحت لا أفكر إلا في الحاضر لأكسب المستقبل، ولو تبقى لي يوم واحد في حياتي، لعشته كما ينبغي بعيدًا عن الحزن، الأمل شيء جيد، والأشياء الجيدة لا تموت أبدًا ، فالشيء الوحيد الذي جعلني أعيش إلى هذه اللحظة، هي ومضة الأمل التي أتمسك بها، فلولاها لاختصرت مشوار حياتي منذ وقت طويل، الأفضل دائمًا أن نتطلع إلى الأمام بدلًا من

النظر إلى الخلف.

حينما رأيت سحابة من النعاس تغلف جفنيه، طلبت منه أن ينام على أن نواصل الحديث عند الصباح، لكن عندما استيقظتُ لم أجده، كان قد رحل كما يرحل الغمام، يظلل السماء ثم يرحل، غادر وترك أسئلة كثيرة حائرة لم يجب عليها، ربما سأجده في يوم ما، في أزقة الوطن الضيقة، أو في إحدى القرى وهو يهيم.

وجدت ورقة في المنضدة تحت توقيع «نبي كاذب» كتب فيها: كل منا يا صديق يحتضن جراحات لم تندمل بعد، ويحيا على خيبات كثيرة، ولديه مواقف حاسمة، وعاش أيامًا كئيبة في حياته رغمًا عنه، عليه أن يتذكرها ويستخرج منها العبر، إنها الحياة تعز من تشاء وتذل من تشاء، تفرح وتحزن. إننا ننتمي إلى جيل تكالبت عليه الحسرات، كن صامدًا يا صديق دع الأيام تمضي، حتمًا سينتهي كل شيء مؤلم. أجمل شيء أن تبتسم في لحظات المعاناة لتفسد لمعاناة لذتها. لا أحد يشاركك فجيعتك إلا أنت، أنت الوحيد القادر على كنس الحزن من حياتك، لا أحد سواك. «نبي كاذب».

الطريق إلى الضفة الأخرى...

كل إنسان يظن أنه أتعس إنسان في الأرض، لكن حينما يتعمق من هم حوله ويدخل أفئدتهم ويتعمقهم عاطفيًا بذكاء وحذق، يكتشف أن هناك كثيرين يشاركونه التعاسة، بل هناك من هم أتعس منه. الحياة ليست سخية في توزيع السعادة لكن مع ذلك لا بد أن أعيش تلك اللحظات السعيدة العابرة كما ينبغي. ما زالت كلمات سفيان تتردد في خاطرتي «كل منا يا صديق يحتضن جراحات لم تندمل بعد، ويحيا على خيبات كثيرة، ولديه مواقف حاسمة، وعاش أيامًا كئيبة في حياته رغمًا عنه، عليه أن يتذكرها ويستخرج منها العبر....».

سمعت ذات يوم أحد الصالحين يتصدق بنصيحة ويشبه الدنيا بظل الإنسان ويقول: «الدنيا مثل ظل الإنسان تمامًا، حينما يكون الظل أمام صاحبه، مهما فعل لا يستطيع اللحاق به، كلما يتقدم ويخطو خطوة، يتقدم الظل أيضًا خطوة نحو الأمام، وحينما يكون الظل خلف صاحبه، مهما فعل الظل لا يفلح في اللحاق بصاحبه، هكذا الدنيا كذلك، عندما يهتم الإنسان بالدنيا وما فيها فإنه بذلك وضع الدنيا أمامه، يجري خلف متاعها ولكن لا يصل لغير السراب، وعندما يترك الدنيا الزائلة بمتاعها القليل فإن الدنيا تجرى خلفه ولا تلحقه».

كنت أعمل بهذه النصيحة، تركت الدنيا خلفي حينًا من الدهر، لكن الدنيا لم تتقدم نحوي خطوة واحدة، بل ظلت واقفة في مكانها، كل ما أتقدم خطوة للأمام تزيد المسافة بيني وبينها اتساعًا، أشعر بها تتلكأ ولا تحاول أن تخطو نحوي كأنها تخاصمني وبيني وبينها عداوة وبغضاء.

ربما لو عادت الأيام إلى الوراء قليلًا، لكان بالإمكان أفضل مما كان، لكن أعلم جيدًا أن الأيام لن تعود إلى الوراء طالما قضت، أمامي الواقع علي أن أفكر فيه وأن أصيغه كما أريد، الفرصة موجودة أمامي وما زالت الظروف مواتية للتغير، وأن أجنحة النسر المكسورة ستنضم يومًا ما، ستحلق في السماء عاليًا.. عاليًا.. عاليًا.

أقول وأنا واثق بما أقول، الحياة تصدنا بمتاريسها وتستقبلنا بمؤخرتها النتنة لكن من يعيش على الأمل لا يعرف المستحيل، سأدع الحياة تفعل أفاعيلها وأنا كذلك سأفعل أفاعيلي، فلكل داء دواء. نعم أيام الرماد تقهرني لكن سأحاول جاهدًا ألا أطلق العنان للحزن والكآبة لقيادتي، الفرصة مواتية للانطلاق، سأجعل كفة السعادة ترجح كفة الإحباط ولا ألوم إلا نفسي بعد اليوم، إن كان الحظ السعيد سمكة سأصطادها في عمق نهر الحياة العكر، سأقاتل حتى النهاية، لا يهمني أن أنهزم مرات ومرات، ما يهمني أن أنهض مرة أخرى حتى أنتصر، فالغيمة ستستجيب حتمًا لنداءات الأرض العذراء، أعلم أن الأيام القادمة ستكون أشد ضراوة وقسوة عليَّ أن أستعد جيدًا لأقاتل بكل أسلحتي حتى الرمق الأخير.

ثمة أمل يلوح في ذهني، تنتابني رغبة أكثر من أي وقت سبق بأن

أعيد ترميم حياتي من جديد،لا بد من إعادة الأمور إلى نصابها، علي أن أقرأ الفاتحة على روح العتمة، قبل أن أبدأ مراسم تشييع العتمة إلى مثواها الأخير، إلى حيث ألا عودة. أشعر بأنني أملك ذراعين قويين لمصارعة الإحباط... الإحباط شرك نصبته لنفسي يجب أن أخرج منه بنفسي.. أشعر بأن الحياة محتملة رغم كل الشرور، لا أفكر في الموت مطلقًا الآن، الموت يعني النهاية، كيف تأتي النهاية قبل البداية، كيف يموت من لم يعش، أحس بأني ولدت للتو، وأريد أن أحيا كما ينبغي.

هناك الكثير يجب أن أفعله، والدي، عبير، سلامة، زينوبة، هارون أبوكديسة، كلهم ينظرون إليَّ بترقب.

أشعر برغبة في الحياة أكثر من أي وقت مضى، لا أريد أن أموت قبل أن أكون شاهدًا على مراسم تشييع العتمة إلى مثواها الأخير، فالفجر يأتي بعد ظلمة، والظلمة قد طالت وحان موعد انبلاج الفجر وبزوغه، أريد أن أعزف قيثارة حياتي كما أريد وأرقص على أنغام الأمل، سأمضي بشجاعة إلى الأمام ولا آبه بالماضي الذي يجرجر ذاكرتي، ولا أبكي مرة أخرى على جثث أحلامي المذبوحة، فمثلما ماتت تلك الأماني ستولد أماني أخرى.. سأحرز هدفًا في مرمى الإحباط وسأحتفل بطريقتي التي أجيدها، سأعزف قيثارتي، سأغني، سأرقص.

بدأت تنمو في قلبي بوارق الحنين، أشجان الحب تغازلني من جديد، قلبي لا يزال مفعمًا بحب عبير، الوردة السوداء، لا بد أن أعود إليها مرة أخرى، فأنا بحاجة إلى عيونها لأرى المسافات البعيدة، قسوتُ عليها

بالفراق طوال هذه السنين، لكن أعلم جيدًا ستمنحني صكوك غفرانها، كل طقس التوقعات يشير إلى أنها ستغفر لي سيئات الفراق، فهي عاشقة نبيلة، وقلبها رحب، ومن يحب بصدق لا يكره أبدًا، ستقدم نفسها لي قربانًا كيرويل التي قدمت نفسها قربانًا للنهر من أجل عشيرتها. صورتها تتوهج في ذهني، أبصر طيفها أمامي، أراها كومضة قادمة من الأمل، أسمع صدى خطواتها وهي تخطو بتمهل، أستنشق عطرها الفريد.. لا بد أن تأتي، أحتاج إليها أكثر من أي وقت مضى، كسحابة في صحراء العتمور. لا بد أن أعيد ترميم العلاقة من جديد، نعم قد خسرت جولة ولم أخسر بقية الجولات، ربما أن سمعتي ملطخة عندها بعار الهروب لكنني لم أنهزم، أنا بكل عتادي.

أشعر برغبة أكيدة في الذهاب إلى النهر، النهر يعيد ترميم ما تبقى من الأمل، الساعة تشير إلى الخامسة مساء، موعد ورود الفتيات اللاتي يقفن على تخوم البلوغ، لكن في هذه المرة لا تستهويني ثمار نهودهن التي تطل برؤوسها، ولا أفخاذهن الوارفات. هرولت مسرعًا إلى النهر، أرى صورة عبير في كل شيء، كما اللقاء الأول حينما أكدت لي حبها، كنت أرى صورتها متجسدة في كل ما أراه أمامي، أراها تبتسم ابتسامتها المعهودة، لكن في هذه المرة، تبدو حزينة بعض الشيء وفقدت بعض نضارتها، كلما أرى طيفها الذي يلمع في النهر، تضيء خيوط السعادة عتمتي، يطلق فجر الأمل زغاريده. أسمع صدى كلمات والدي تتردد.. كن كالنهر نشطًا تضعف أحيانًا لكن سرعان ما تعود أكثر قوة، تتحمل أذى الناس،

ويحصلون علي ما يريدون منك، تتحمل المشقات وتجتاز الصعوبات التي تعترض مسيرتك حتى تصل إلى هدفك.

تنتابني رغبة أن أبحر إلى الضفة الأخرى، أرى جزيرة أحلامي ترقد في الضفة الأخرى، بدون أن أشعر قفزت في الماء، أخذت أبحر مصارعًا الأمواج، أحس بأني غير قادر على الإبحار، لكن كلما أتذكر عبير تتولد في نفسي طاقة لا أعرف مصدرها... أخذت أبحر ثم أبحر ثم أبحر.

الفهرس

- عتمة سحيقة... 5
- عتمة وافرة 13
- ذاكرة الوجع 21
- رعد الذاكرة 31
- أطلال ذكريات 39
- غثيان الذاكرة 56
- انتعاش الذاكرة 69
- ذكريات مهجورة... 85
- روح تتمزق.... 90
- رائحة الخمر.... 96
- مرسى الذاكرة 106
- سقوط الأحلام 127
- الطريق إلى الضفة الأخرى... 147